رسائل الفكرة الإسلامية

الإسلام ومكانة الشريعة

محمّد عبد الله السمان

دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس

رسائل الفكرة الإسلامية

« ٤ »

الإسلام ومكانة الشريعة

محمد عبد الله السمان

- دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس -

مقدمة

الاســـلام عقيدة وشريعة ، وهـــذه من المسلمات التى لا يجادل فيها مسلم أو يمارى ، واذا فرض ان وجد مثل هذا المسلم الذى يجادل فى مسلمة من المسلمات فى الاسلام أو يمارى ، فلابد ان يعاد النظر فى اسلامه ، فان كان جاهلا رد الى صوابه ، وان كان غير جاهل ومصرا على رايه ، جودل بالتى هى احسن ، فان استمر على اصراره ، يجب أن يحدد موقفه من الاسلام ، وان يحـــدد موقف الاســـلام منه ...

وقد يتساءل متسائل :

اذا كان الترابط الوثيق بين العقيدة والشريعة لا انفصام لعروته ، وأن هذا من المبادىء المقررة فى الاسلام ، والتى هى والمسلمات سواء .. فلماذا اذن الجدل فى أمر مقرر ومسلم به فى الاسلام ؟

والحق مع المتسائل هذا من حيث الشكل ، لكن من حيث الموضوع فلابد من شىء من التحفظ ، فلو اننا نعيش مجتمعا مسلما ، او لو ان الدولة المسلمة وجودها ونعيش فى ظلها

لكان الحق مع المتسائل شكلا وموضوعا ، لكنا ــ واقعا ــ نعيش مجتمعا جاهليا ــ بكل ما تعنى كلمة « الجاهلية » من مدلولات . ولا مكان للدولة المسلمة فى اية بقعة من بقاع العالم الاسلامى المترامى الاطراف ، وبمعنى آخر فى ايجاز ، نحن اليوم ــ أعنى المسلمين جميعا ــ نعيش غربة الاسلام .. وهذا يضطرنا الى أن نواجه عقولا تحملها أدمغة جاهلية ، وان فرض علينا الاعتراف باسلام أصحابها بحكم شهادات مواليدهم ..

ومن المقررات أو المسلمات أيضا ، والتى لا تقبل الجدل ، أن الاسلام فى معزل تام عن الحياة ، وأن حياة الشعوب المسلمة قاطبة فى واد ، والاسلام فى واد آخر ، وبعد ما بين الواديين بعد ما بين السماء والارض ، واعنى بالاسلام هنا ، الاسلام الذى رضيه الله لعباده دينا ، وهذه الانفصالية ، تعنى أن شريعة الله ــ فوق أنها معطلة ــ مضطهدة كذلك ، وأن هذا الاضطهاد واقع عليها من المسلمين أنفسهم ، فى اشكال الانظمة التى تحكم الشعوب المسلمة ، وعملائها من المحترفين فى حقول الادب ، أو السياسة او الدين .. وليس واقعا عليها اليوم من الاستعمار . كما كانت الحال فيما مضى ، لكن ليس معنى هذا تبرئة النفوذ الاجنبى ــ ولاسيما الصليبى أو الشيوعى ــ لان الانظمة فى ديار المسلمين ــ وبلا استثناء ــ انما تدور فى فلك أى منهما ، والنظام الذى هو الذى استطاع أن يدور فى فلك النفوذين معا ، ومهما حاولت وسائل الاعلام فى ديار المسلمين أن توهم الشعوب بغير ذلك ، فان محاولاتها محكوم عليها بالفشل ، فالاصغاء أو التظاهر بالرضا ، لا يقوم دليلا على اعتبار الاوهام حقيقة ، ويجب أن لا ننسى أن هذه الوسائل

الاعلامية جزء لا يتجزء من الانظمة ، وما دامت الانظمة قد عودتنا ألا تقوم على مبادىء ، فان وسائل الاعلام اولى بالتجرد من المبادىء ، وشىء طبيعى أن يتبع الجزء الكل .. تبعية الظل لصاحبه ..

قد يفهم البعض أننا حين نتكلم عن الحكم بما انزل الله ، انما نعنى اقامة الحدود او بعض الحدود ، وهذا وهم يجب تصحيحه ، والواقع أننا نعنى أن يكون الاسلام نظام حياتنا بأكملها ، اى أن يكون سلوكها : شعوبا ودولا ، منهاجا وأسلوبا ، عبادات ومعاملات ، حكومات ومجتمعات ، اى اننا نحيا داخل اطار الاسلام ، ليس معنى هذا أننا نعيش داخل دائرة مغلقة علينا ، فى معزل تام عن العالم ، وألا ناخذ بأسباب الحضارة والتقدم الاصيلين ، فالتفكير فى الاسلام فريضة ، وانما المقصود بأن نحيا داخل الاطار الاسلامى . أن تكون لنا ايديولوجية اسلامية ، مصوغة من شريعة الله ، فنرفض كل ما يصطدم باصل من أصول هذه الشريعة ، وماجد فى الحياة من جديد . فقد وضعت شريعة الله له معالم وضوابط ، واعتبرتها بمثابة مصادر ثانوية او فرعية ، حتى تظل شريعة الله فى حركة دائبة ، صالحة لكل زمان ومكان ..

وبعـد ..

فالسؤال الذى يفرض نفسه علينا :

اذا كانت شريعة الله هى النظام الامثل للمسلمين .. فلماذا هى اليوم قابعة فى الاسر مكبلة بالاصفاد ، بينما أطلق

سراح الجاهلية تهيمن على وجودنا نحن الشعوب المسلمة ، تقـــود حاضرنا وتخطط لمستقبلنا ، ليس عليهـــا سلطان ، الا سلطان الاهواء التي تتحكم في الانظمة التي بايديها امورنا على الرغم من أنوفنا ، بلا اختيار منا او ارادة لنا ؟!

والاجابة عن هذا السؤال ، تقتضي منا ان نكون صرحاء مع أنفســـنا ــ على الاقل ونحن نملك أن نحرك أقلامنا ، ونعجز عن ان نحرك ألسنتنا ــ وهذه الصراحة تقتضينا أن نضع النقاط على الحروف ، وأن نقرر أمورا ثلاثة لا مفر من تقريرها :

الامر الاول : أن الانظمة التى تحكم الشعوب المسلمة هى التي وضعت شريعة الله في هذا الاسر الرهيب بدافعـــين اثنين : اولهما ، لان شريعـــة الله تصادم مصالح هـــذه الانظمة ، وتتصـــدى لمطامعها ، والآخر ، لان تعطيل شريعـــة الله امر تقر به عيون التسلط الاجنبى ــ صليبيا كان ام شيوعيا ــ وتهدأ له اعصابه وتطمئن اليه مشاعره ..

الامر الثانى : ســـبب للامر الاول ، وهـــو ان الشـــعوب المسلمة لم تفقد اليوم ظلها ــ فحسب ــ بل فقدت وجودها ايضا ، فاصبحت تشغل حيزا من الفراغ ، وتمثل ارقاما ميتة على الورق ..

الامر الثالث : هـــو ان علمـــاء الدين في ديار المسلمين ، لم يعودوا اهلا للريادة او القيادة ، بعد ان ارتبطوا بالمناصب والوظائف ، ودانوا انفسهم بالتبعية

المطلقة للانظمة ، واصبحوا وسيلة اعــلام لهذه الانظمة ، تستجيب لرغباتها ، وتعينها على اقرار الباطل ولفه فى ثياب الحق ..

واخيرا .. ما المخرج ؟

لا مخرج الا فى العودة الى الله ، بعد ان نوقف الحرب التى أعلناها عليه ــ سبحانه ــ وعودة الأنظمة ــ العقبة الكأداء فى طريق شريعة الله ــ عودة هذه الانظمة الى الله امر هو شبه مستحيل ، فقد اصبح لها معبود آخر ملك عليها كل شىء فيها ، والمعبود الآخر هو مصالحها ومطامعها ، أما عودة الشعوب المسلمة الى الله فأمر جائز فى كل وقت ، اذا هى استردت خالص ايمانها بالله ، وصادق ثقتها فيه عز وجل ، واذا أصبح علماء الدين أهلا للقيادة والريادة ، يقولون كلمة الحق لا يخشون فى الله لومة لائم ، وذكروا الشعوب المسلمة بحقها فى الحياة الاسلامية الكريمة .. أجبرت العقبة الكئود على ان تختفى ، او ان تحمــل عصاها وتذهب الى غـــير رجعة ..

القاهرة ــ محمد عبدالله السمان

ص.ب ١٦٢١

* * *

تمهيد

● قد جاءكم من الله نور :

اجل : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النـــور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم) .

صحيح ان الخطاب موجه هنا الى اهل الكتاب ، بدليل ان الآية الاولى من هاتين الآيتين ، قد بدات بقوله تعالى : **يا اهل الكتاب** .. لكن العبرة بعموم اللفـــظ لا بخصـــوص السبب ــ كما يقول العلماء ، ثم ان الآية وان كانت تخاطب اهل الكتاب ، الا ان العبرة بمداول الخطاب ، ولكي تتضح الصورة يجدر بنا ان نعرض كل الآية : **(يا أهل الكتاب قـــد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قـــد جاءكم من الله نور وكتـــاب مبين)** . وواضح أن الرسول هو محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وان النور من الله ، وان الكتاب هو القرآن ، وان المقصود بمن يهدى الله بهذا الكتاب عامة الناس ، ومن باب أولى هداية المسلمين والقرآن انزل على رسولهم ..

ونلاحظ هنا فى آيتى سورة المائدة :

اولا : ان لفظ نور الى جانبلفظ كتاب ، فالنور بمثابة الكاشف الذى يضيىء الطريق ، والكتاب بمثابة المنهج الذى يرسم أو يضعخطة السير فى هذا الطريق .

ثانيا : ان الكتاب هو الذى يتكفل بالحياة الآمنة المستقرة ، يحدد معالمها ، يحدد معالم الهدى ومعالم الانحراف اذن فالقرآن هو شريعة الله لعباده ؛ شريعة متكاملة لا معقب عليها ، صاغها الحكيم الخبير كى تصلح لا، تكون خاتمة الشرائع ؛ وهذا يقتضى أن تكون صالح لكل زمان ..

* * *

● ومن يرد الله فتنته :

اجل : (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا . أولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم . لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) . الكلام فى مجال سلوك اهل الكتاب وبخاصة اليهود ، فأول الآية الكريمة : **يا ايها الرسول لا يحـــزنك الذين يســـارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب** لكن العبرة ــ كما قلنا ــ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بالاضافة الى ان شطر الآية الاخير : **ومن يرد الله فتنته ..** الى آخر الآية ؛ حكم عام ينطبق على اهل الكتاب وعلى غير اهل الكتاب ...

ففى مسلمى اليوم من يقولون : آمنا .. بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، والا فلماذا أعطوا شريعة الله ظهورهم ، وأعطوا وجوههم الشرائع الجاهلية القديمة والحديثة ؟ لماذا تمردوا على حكم الله ، واستجابوا لحكم الطاغوت ؟ لماذا يستولى عليهم الفزع اذا اسمعوا كلام الله ، ويستحوذ عليهم الهلع اذا قيل لهم : هذا هو الاسلام ، ولن نرضى بغير الاسلام بديلا ؟؟ وصدق الله العظيم : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) .

* * *

● **أفحكم الجاهلية يبغون ؟**

أجل : ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟؟ لا وسط بين الامرين : اما حكم الله واما حكم الجاهلية ، وليس معنى الجاهلية « هو المقابل للفظ .. الاسلام » ، وسواء استوردنا تشريعات من الغرب أم من الشرق ، من الماضى السحيق أم العصر الحديث ، مادام ما قد استوردناه بعيدا عن الاسلام ..

وليس هناك وجه للمقارنة بين شريعة الخالق ، وشرائع المخلوقين ؛ كما لا يمكن عقلا ومنطقا ان تقوم مقارنة بين التبر والتراب ، والثريا والثرى ، والعقل والهوى ، فلا جدال ان حكم الجاهلية انما يقوم على الهوى ، بينما حكم الله انما يقوم على العدل ، واذا نحن استعرضنا الآيتين السابقتين على هذه الآية الكريمة ، وجدنا فى كلتيهما تحذيرا من الله

لرسوله ــ صلوات الله وسلامه من اتباع أهــواء الذين يبغون حكم الجاهلية من أهل الكتاب وغــيرهم ، ففى الآية الاولى : فاحكم بينهم بما أنزل الله .. ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .. » وفى الآية **الاخرى** : وان احكم بينهم بما أنزل الله .. ولا تتبع أهواءهم .. واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك .. » .

* * *

● **غربة الاسلام :**

أجل : بدا الاســـلام غريبا ، وسيعود كما بدا غريبا ، فطوبى للغرباء ــ كما جــاء فى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ..

كانت القاعدة فيما مضى ، أن شريعة الله هى التى تنظم حياة المسلمين ، والشاذ أن يفكر فى عزل شريعة الله عن حياة المسلمين ، وانقلبت الاوضاع رأسا على عقب ، فقــد أصبحت القاعدة أن تحكم الجاهلية ، والشاذ هو المطالبة بأن يرد اعتبار شريعة الله لتنظم حياة المسلمين ، فهذه الدعوة ، قد أصبحت اليوم غريبة حتى على اذهان العامة من المسلمين ، هؤلاء الذين استرخوا لحكم الجاهلية مكرهين ، أما بعض ادعياء الثقافة : أشياع التقدمية الزائفة ، وعملاء الفــكر الاجنبى المستورد ، الغربى منه أو الشرقى ، فهؤلاء يستنكرون ــ كلما سنحت لهم الفرصة ــ مجرد التفكير فى تطبيق الشريعة الاسلامية ، يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، وأما من بأيديهم أمور المسلمين ، فهؤلاء تعتمد فلسفتهم على المراوغة واللف والدوران ، انهم لا يجهرون أو يجاهرون برفضهم لتطبيق

شريعة الله ، وانما ينتحلون الاسباب الواهية ، ويتلمسون المعاذير الواهنة ، ويجسدون منها عقبات ، ليس من اليسير تجاوزها ، بل ومن العسير التصدى لها ، وهناك شرذمة من ولاة الامور ، تجردوا من الحياء — مستخفين بالشعوب المسلمة المغلوبة على امرها — واعلنوا العلمانية صراحة تطبيقا ، وادعوا الاسلام نظرا .. ولا مانع لديهم من الاشتراك فى المؤتمرات التى تعقد باسم الاسلام ، او حتى لنصرة الاسلام ، ولا مانع لديهم ايضا ، ان يبرزوا فى الاحتفالات الشكلية بالمواسم والذكريات الاسلامية فهذا او ذاك لا ينقص اصرارهم على العلمانية شيئا .. !!

* * *

● وماذا بعد ؟

اجل : وماذا بعد ؟ اما لهذا الليل من آخر ؟ الى متى تظل شريعة الله معطلة ؟ هل تظل الشعوب المسلمة مغلوبة على أمرها ، ويظل القابضون بأيد من فولاذ على نواصى أمور المسلمين ، متمرئين استكانة الشعوب المسلمة الى الابد ؟؟

هناك مصلحة مشتركة بين **الانظمة** الحاكمة فى ديار المسلمين : مستمرئين استكانة الشعوب المسلمة الى الأبد ؟؟. الانظمة والشعوب — تريد أن تعيش ؛ والفرق — فحسب — فى ماهية هذا العيش ، فالعيش بالنسبة للانظمة ، انما يعنى الاسترخاء فوق كراسى الحكم دون ان تسأل من احد ، او يسائلها أحد من الناس ؛ والعيش بالنسبة للشعوب المسلمة

انما يعنى الاسترخاء لحياة الدعة بلا وجود حقيقى أو اعتبار مشرف لها ، واذا كانت السوائم كثيرا ما تحس بأن لهـا وجودا تدافع عنه ، واعتبارا تحرص عليه ، فان الشعوب المسلمة لم يقدر لها بعد أن تطمع فى حياة السوائم .. !

لكن اليس من مخرج ؟

من السهل علينا ان نجيب : أن المخرج فى العودة الى الله سبحانه ، لكن العودة الى الله سبحانه ليس مجرد كلام انشائى يلقى على عواهنه ، وانما هو طريق محفوف بالمعاناة والعوائق ، لا يكفى أن نردد بألسنتنا : تبنا الى الله .. ورجعنا الى الله .. وعزمنا على أن لا نعصيه ابدا .. » ان العودة الى الله سبحانه ، تتطلب رصيدا من الايمان الخالص ، ورصيدا من اليقين الصادق .. ورصيدا من الاعتزاز بالله والثقة المطلقة فيه عز وجل .. ثم التضحية — بلا تردد — بالمال والنفس ، وكل قيمة غالية تهون — فى سبيل الله والاسلام ... وهذه كلها ، واكثر منها — امور تحقق أهدافها اذا نحن فهمنا الاسلام فهما صحيحا ، وتدبرنا كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله الصحيحة — صلوات الله عليه — تدبرا عميقا ، واقتدينا اقتداء كاملا بالرعيل الاول من اصحاب رسول الله والتابعين وتابعى التابعين ، ومن جاءوا بعدهم من الائمة الراشدين ..

* * *

غربة الإسلام

هل هناك ادنى ريب فى اننا نعيش غربة الاسلام ؟؟

ان الذين يخالجهم ادنى شك فى اننا نعيش غربة الاسلام ، اما انهم يعيشون على هامش الاسلام ، واما انهم يعيشون على هامش الحياة ، الصنف الاول علاقته بالاسلام لا تتعدى الشكل الى المضمون ، ولا تتجاوز القشر الى اللب ، فالاسلام عنده لا يعنى اكثر من تأدية الشعائر ، والصنف الآخر مسلم بالوراثة ، لاعلاقة له بالاسلام لا من حيث الشكل او المضمون، ولا من حيث القشر او اللب .. بل ان علاقته بالحياة ذاتها ، لا تعنى اكثر من ان يعيش ، على أى مستوى يكون العيش ، وكلا الصنفين من المسلمين ، لا يحس احساس الاسلام بقضاياه الاساسية ، هذا الاحساس الذى يفترض ان يكون الاسلام هو الدين الذى رضيه الله لعباده ، وان تكون الامة المسلمة خير امة اخرجت للناس ، وفقدان هذا الاحساس لدى الصنف الاول مصدره الجهل ، ولدى الصنف الآخر ، منشؤه الضياع واللامبالاة ..

ولنا ان نتصور مثلا ، كيف انقلبت الاوضاع راسا على عقب ، وكيف صار المنطق السليم عيا مرفوضا ، وصار

العمى المزود بالغباء منطقا سليما مقبولا ، فاذا دعا الدعاة الى ضرورة وجود امة مسلمة واحـــدة ، والى ضرورة أن تحكم شريعة الله ، بدلا من الدويلات المسلمة المزقة شر ممزق ، والمهيئة اهون مهانة ، والضائعة اخزى ضياع ، حتى غدا كل منها كما مهملا لا اعتبار له ، وشيئا من سقط المتاع ، وحتى صارت هذه الدويلات فى مجموعها لا تمثل شيئا فى ميزان القوى ، لا يكترث لها ، ولا يبالى بها ، وفى خضم الاحداث الدولية لا يحسب لها ادنى حساب ، وبدلا من شريعة الجاهلية التى تحكم الشعوب المسلمة ، على اساس من هوى الانظمة الحاكمة ، ومصالحها ومطامعها .. اذا دعا الدعاة الى ايجاد رابطة اسلامية بين الشعوب المسلمة ، تمزج ــ على الاقل ــ بين احاسيس هذه الشعوب ومشاعرها استجابة للحديث النبوى المشهور الذى رواه مسلم وغـــيره عن النعمان بن بشير : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . بدلا من الارتباط النظرى والعملى ــ الذى تفرضه الانظمة الحاكمة .. على الشعوب المسلمة باحدى القوتين اللتين تختلفان على كل شىء ، وتتفقان معا اتفاقا مطلقا على الكيد للاسلام ، والتنكيل به : عقيدة وشريعة ، وفكرا وتراثا ، وشعوبا ، أعنى بهاتين القوتين الكبريين : الصليبية والشيوعية .. اذا دعا الدعاة الى شىء مما ذكرت آنفا ، قامت القيامة ، وتصدى للدعوة والدعاة كل القوى التى يفزعها أن تقوم للاسلام قائمة ، أو يسترد لشريعته اعتبـــــارها ، ابتـــداء من الانظمة الحـــاكمة ، وصراصيرها الاعلامية ، حتى الحثالة التى لا تجيد الا التهريج والهتاف والتصفيق ، لكل عهد ، دون ما ادنى نظر الى قيمة هذا العهد ، ولو كان فى قمة الاستبداد والجبروت والطغيان .

ووقفة مع الحديث الشريف الذى تنبأ بغربة الاسلام :

رواية صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه :

« بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا ، فطوبى للغرباء » .

ورواية أخرى فى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما :

« ان الاسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية فى جحرها » .

كلمة : يأرز ، معناها ينضم ويجتمع بعضه الى بعض ، والفعل بكسر الراء ، وقيل : بضمها وبفتحها أيضا ، والمقصود بالمسجدين ، المسجد الحرام بمكة ومسجد الرسول بالمدينة ، والمعنى انكماش الاسلام كيفا ، لاكما . .

وكلمة الغرباء ، جاء تفسيرها فى بعض روايات آخر الحديث ، قيل : الذين يصلحون — اذا فسد الناس — من سنتى ، وقيل : المهاجرون أوطانهم فى الله . . وقيل : « هم الذين يفرون بدينهم من الفتن » وفى رواية للامام احمد والطبرانى : قوم قليل فى ناس سوء كثير ، ومن يعصيهم أكثر ممن يطيعهم » .

قال أحد السلف الصالح ، احمد بن عاصم الانطاكى :

« انى أدركت من الازمنة زمانا ، عاد فيه الاسلام غريبا

كما بدأ ، ان ترغب فيه الى عالم وجدته جاهلا فى عبادته ، مخدوعا صريعا ، غدره ابليس ، قد صعد به الى أعلى درجة فى العبادة ، وهو جاهل بأدناها ، فكيف له بأعلاها » .

هذا كلام لا يحتاج الى تعقيب ، حسبنا انه قيل فى القرن الثالث الهجرى ، وحسبنا ان نردد ما قاله ابن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥ هـ . تعقيبا على هذا الكلام ، قال رحمه الله : هـذا وصف اهل زمانه ؛ فكيف بما حدث بعده من العظائم والدواهى التى لم تخطر بباله ، ولم تدر فى خياله ؟!

* * *

ونعود من حيث بدانا :

ان غربة الاسلام التى نعيشها اليوم ، عاشها أجدادنا على مسار اكثر من قرنين من الزمان ؛ لكن ظروفنا اسوأ من ظروفهم بكثير ، لقد كانوا هم يعيشون بداية التسلط الاستعمارى الصليبى المادى ، يعيشون عصر تجاهل شريعة الله فى بعض ديار المسلمين لا جميعها ، يعيشون مراحل تراخى الشعوب واستسلامها للقوى التى تحكمها ، اما نحن فنعيش أوج التسلط الاستعمارى المعنوى ، الصليبى ـ مضافا اليه ـ الشيوعى ، نعيش عصر تجاهل الشريعة عن عمد ، مضافا الى ذلك التطاول عليها ، والسخرية منها ، والتنديد بها ، نعيش مرحلة الاسترخاء والاستسلام ، مضافا اليهما : الاستخذاء والتزلف والنفاق ، كان أجدادنا أحسن حالا منا ، فلم يكن فى أيامهم وسائل اعلام تملكها القوى الحاكمة ، تدين بالولاء المطلق لها ، تزيف لها التاريخ ، وتقلب

لها الحقائق راسا على عقب ، وتنصر باطلها على الحقّ ، وتناصر جورها على العدل ، وفى ايجاز : وسائل الاعلام ليست الا ابواقا ، لا عقل لها ، ولا ارادة ولا تفكير ، فهى امينة على ما يلقى اليها ، فاذا تجاوزت حدود الامانة ، فانما تتجاوزها ، لكى تضيف كذبا الى كذب ، وباطلا الى باطل ، وبهتانا الى بهتان ..

اية غربة يعيشها الاسلام اليوم ، ونعيشها نحن المسلمين معه ؟ تتجاهل الانظمة الحاكمة شريعة الله — عن عمد — بل ويتطاول عليها من اقلام هابطة عميلة مسخرة ، فلا يرتفع صوت يستنكر ، ولا يصر قلم يحتج . فاذا حدث شىء من هذا عرضا او قصدا . اتهم الغيورون على دينهم وعلى شريعة الله بالرجعية والتأخر ، واثارة الفتن الطائفية ، ومحاولة تفتيت وحدة الامة ، وربما اتهموا بالعمالة لدولة اجنبية . او الانحياز الى اسرائيل .. وكل شىء جائز ، مادام الفرد هو الذى يحكم ، هو الذى استخف قومه فأطاعوه ، ومادام القانون هو السوط والسجن والمعتقل ، ومادامت القاعدة ان يسود الباطل ، والشاذ أن يرفع الحق راسه ، او يعلي صوته ، أو يرفع يده .. ومادامت القوة هى التى تتكلم بأعلى صوت ، والعدل لا يملك حتى مجرد الهمس الى نفسه ..

ان غربة الاسلام حقيقة وليست خيالا ، وان غربة الشعوب المسلمة تطبيقا وليست نظرا ، ونحمد الله على اننا نستطيع ان نهمس بمشاعرنا :

وحسبنا الله وحده ..

* * *

أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟؟

أفحكم الجاهلية يبغون ؟؟

لماذا الاصرار على حكم الجاهلية :

يقول الشهيد عبد القادر عودة فى مقدمة كتابه : « المال والحكم فى الاسلام » :

« ان المسلمين — فى كل أنحاء العالم — قد جهلوا الاسلام وانحرفوا عن طريقه الواضح ، حتى لم يعد فى الدنيا كلها بلد يقام فيه الاسلام كما انزله الله . سواء فى الحكم والسياسة ، او الاقتصاد والاجتماع ، او غير ذلك مما يمس مصالح الافراد والجماعات ، ويقوم عليه نظام الجماعة ، ويدعو الى صلاحها واسعادها ..

« ولقد ظل المسلمون ينحرفون عن الاسلام حتى هجروا احكامه ، ثم اتخذوا لانفسهم أحكاما تقوم على اهوائهم ومنافعهم ، فادى ذلك الى التحلل والفساد ، وملا بلادهم بالشرور والآثام ، وعاد على جماعتهم بالبؤس والشقاء » .. لقد وضع الشهيد عبد القادر عودة — منذ اكثر من ربع قرن — النقاط على الحروف ، فى هذه القضية الاساسية فى حياة الاسلام والمسلمين ، والذى استوقفنى فى هذه الكلمات ؛ قول الشهيد : ان المسلمين — فى كل انحاء العالم — قد جهلوا الاسلام .. » وربما كان يقصد — رحمة الله — ان المسلمين

قد تجاهلوا .. ولم يجهلوا .. فالحكم بما أنزل الله عز وجل من المبادىء المقررة فى الاسلام ، فوق أنه من المسلمات التى يجب الا يجادل فيها أحد — كائنا من كان هذا الاحد من الناس — ثم انه لا خيار للمسلمين فى أن يحكموا — اولا يحكموا — بما أنزل الله سبحانه : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا أن يكون لهم الخيرة من امرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) .
الاحزاب — ٣٦

ان هذه القضية — منذ بداية عصور التأخر فى العالم الاسلامى . وحتى اليوم — انما تقف على طرفى نقيض ، اتجاه طبيعى سليم ، هو حكم شريعة الله ، واتجاه شاذ منحرف ، هو حكم الجاهلية . ولا يجوز أن يكون هناك اتجاه وسط بين هذين الاتجاهين ، فاما حكم الله ، واما حكم الجاهلية ، واذا كانت الغلبة فى النهاية لحكم الجاهلية ، حيث تم له الانتصار والاستقرار ، فما اكثر ما ينتصر الطغيان على العدالة ، والباطل على الحق ، وما اكثر ما يتغلب الهوى على المبدأ ، ويتفوق الشاذ على القاعدة ، الا ان هذا كله واكثر منه . لا يمس جواهر هذه القيم : العدالة والحق ، والمبدأ والقاعدة ، ولاتنقص من اطرافها قيد انملة واحدة ..

ان انتصار الشر على الخير ، لا يدل اطلاقا على جدارة الشر بالنصر ، فسيظل للشر وجهه القبيح المعتم وسيظل للخير وجهه الصبوح المشرق ، وانما يدل انتصار الشر على الخير . على ان الخير قد فقد أعوانا له يناضلون من اجل احقاقه ، وان الشر قد اكتسب اعوانا له ، هيأت لهم سلطات

غاشـمة سبل الوقوف الى جانبه ، عن طريق الرغبة أو الرهبة او هما معا ..

•

لكن ما حكم الجاهلية هذا ؟

فى ايجاز يمكننا أن نقول : انه حكم الطاغوت ، المقابل للحكم بشريعة الله ، وبينما يكون الحاكم فى المسار الجاهلى الها أو نصف اله على الاقل — نجد الحاكم فى ظل الاسلام انسانا عاديا ، الا انه اكثر الناس مسئولية وتبعات ، واثقلهم حملا ومعاناة ، وبينما نرى الحاكم فى المسار الجاهلى يرى نفسه الدولة والدولة نفسه ، ويرى لنفسه الحق فى ان يكون فوق القانون ، نرى الحاكم فى المسار الاسلامى ، يجىء على لسانه : « انى قد وليت عليكم ولست بخيركم .. فان — رايتمونى على حق فاعينونى .. وان رايتمونى على باطل فسددونى .. اطيعونى ما اطعت الله فيكم .. فان عصيته فلا طاعة لى عليكم .. » ..

وليس المجال هنا مجـــال مقارنة بين حكم الله وحكم الجاهلية ؛ لاننا بصدد مناقشة حكم الجاهلية ، الذى ندد به القرآن الكريم ؛ يقول ابو السعود فى تفسيره للآية الكريمة : افحكم الجاهلية يبغون ؟

المراد بـــ ((**الجاهلية**)) : اما الملة الجاهلية التى هى متابعة الهوى ؛ الموجبة للميل والمداهنة فى الاحكام .. واما المراد : اهل الجاهلية .. » .

ويقول ابن كثير فى تفسيره ايضا :

« ينكر تعــالى على من خرج عن حكم الله المحكم ـ المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ـ وعدل الى ما ســواه من الآراء والاهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان اهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم واهوائهم ، وكما يحكم به « التتار » من السياسات الملكية المأخوذة عن « جنكيزخان » الذى وضع لهم « الياسق » وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى منها : اليهودية والنصرانية ، وفيها كثير من الاحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعا متبعا ، يقدمونه على الحكم بكتاب الله ، وسنة رسوله ـ صلوات الله عليه ـ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع الى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير »

كأنى بابن كثير ـ رحمه الله ـ يتحدث عن القوانين والدساتير الوضعية ، ويعجب الانسان لعالم من علماء الدين ـ من اجل كرسى الوزارة ـ يقسم يمين الولاء للدستور الذى هو من وضع البشر ، والمتضمن لاكثر من مخالفة صريحة لشريعة الله .. !

اما الشهيد سيد قطب فيقول فى تفسير الآية فى الظلال :

« افحكم الجاهلية يبغــون ؟ انه استنكار لا يقف عنــد اليهود .. انه استنكار لكل من يريد حكما غير حكم الله ، فكل حكم سواه حكم جاهلية .. والجاهلية ليست فترة من التاريخ،

انما هى حالة تتحقق كلما تحققت مقوماتها فى الحياة .. الجاهلية رجوع بالحكم الى غير قاعدة ثابتة ، فتتحكم فيه أهواء الافراد وأهواء الطبقات ، وأهواء العصبيات والقوميات ، ولا تثوب الى أصل غير متأثر بكل تلك الملابسات .. يشرع فرد للجماعة فاذا هى جاهلية ، لان هواه هو القانون — أو رايه هو القانون ، فلا فرق الا فى العبارات .. وتشرع طبقة لطبقة ، فاذا هى جاهلية ، لان مصالح تلك هى القانون — او راى الاغلبية البرلمانية هو القانون — فلا فرق الا فى العبارات .. وتشرع امة او مجموعة امم للبشرية فاذا هى جاهلية ، لان اهدافها القومية هى القانون — او راى المجامع الدولية هو القانون — فلا فرق الا فى العبارات .. » ..

لفتة مهمة من صاحب الظلال ان يشير الى ان الاستنكار فى الآية لا يقف عند اليهود .. انه أيضا استنكار لكل من يريد حكما غير حكم الله .. والى أن الجاهلية ليست فترة من التاريخ ، انما هى حالة تتحقق كلما تحققت مقوماتها فى الحياة .. فكثير من العلماء — ايثارا للهروب من الحرج ، يحاول تخصيص الآيات على اليهود أو على أهل الكتاب ، ويتجاهل ان العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .. !

* * *

هناك مسألة لابد من التعرض لها — ونحن بصدد حكم الجاهلية — فلقد سبق الآية التى عرضنا لها : افحكم الجاهلية يبغون ؟ سبقها بقليل آيات ثلاث ، انتهت أواخرها بقوله تعالى : « **ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون .. الظالمون .. الفاسقون** » والآية الاولى بدأت بقوله تعالى : « **انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور ..** » والآية الثانية بدأت

بقوله تعالى : « **وكتبنا عليهم فيها ـ اى التوراة .. اذن** فالآيتان الاولى والثانية نزلتا فى سياق الحديث عن اليهود والتوراة .. اما الآية الثالثة فقد بدات بقوله تعالى : **وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه** .. اذن فالآية نزلت فى سياق الحديث عن النصارى والانجيل .. لكن هل يقال : ان الآيات الثلاث خاصة باليهود والنصارى ، ويترتب على ذلك : أن المسلمين اذا حكموا بغير ما انزل الله ، فلن يكونوا كافرين ، ولا ظالمين ، ولا فاسقين ؟ وبهذا يقول بعض العلماء المعاصرين تزلفا الى حكم الجاهلية وسلطان الطاغوت .. صحيح ان الآيات نزلت فى اليهود والنصارى ، لكن لا يمنع هذا شمول الحكم وعمومه ، وكلمة « من » فى : ومن لم يحكم .. وقعت فى معرض الشرط ، فتكون للعموم ، كما يقول النحاة ..

وحتى لو فرضنا جدلا ان الآيات خاصة بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وان اوصاف : الكفر والظلم والفسق تنطبق عليهم اذا هم لم يحكموا بما انزل الله فى التوراة والانجيل ، أفلا يكون من باب اولى ان تطبق نفس الاوصاف على المسلمين اذا هم لم يحكموا بشريعة الله ؟؟

ومسالة اخرى :

تلك التى وردت فى نهاية الآية الاولى : « **ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون** » .

ما مدلول كلمة « الكافرون » ؟ وهل الكفر بمعناه الظاهرى : الخروج عن الملة ، أم ان المقصود بالكفر الظلم والفسق ؟

خلاصة راى الشيخ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » :

« لا مانع يمنع من ارادة الكفر الاكبر .. اذا كان الاعراض عن الحكم بما انزل الله ناشئا عن استقباحه وعدم الاذعان له ، وتفضيل غيره عليه » ..

ثم يقول : ذهب بعضهم الى ان الكفر هنا ورد بمعناه اللغوى للتغليظ لا معناه الشرعى ، الذى هو الخروج من الملة ، واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه ، والبيهقى فى السنن عن ابن عباس انه قال فى الكفر الواقع فى احدى الآيات الثلاث : انه ليس بالكفر الذى تذهبون اليه ، انه ليس كفرا ينقل عن الملة : كفر دون كفر ..

وذهب بعضهم الى ان الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة ، وهو : ان من لم يحكم بما انزل الله منكرا له او راغبا عنه ، لاعتقاده بانه ظلم مع علمه بانه حكم الله ..

ثم يعقب الشيخ رشيد رضا بقوله :

« ولعمرى ، ان الشبهة فى الامراء الواضعين للقوانين اشد ، والجواب عنهم اعسر .. وان العقل ليعسر عليه أن يتصور ان مؤمنا مذعنا لدين الله ، يعتقد ان كتابه يفرض عليه حكما ثم هو يغيره باختياره ، ويستبدل به حكما آخر بارادته ، اعراضا عنه وتفضيلا لغيره عليه ، ويعتقد بعد ذلك بايمانه واسلامه .. » ..

ويضيف الشيخ رشيد رضا :

« والظاهر ان الواجب على المسلمين فى مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم ان يلزموه بابطال ما وضعه مخالفا لحكم الله ، ولا يكتفوا بعدم مساعدته عليه ، ومشايعته فيه ، فان لم يقدروا فالدار لا تعتبر دار اسلام فيما يظهر .. » ..

ورحم الله الشيخ رشيد رضا ، فقد كان يتكلم فى دنيا غير الدنيا .. !

وجاء فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب :

« اولئك هم الكافرون ، لانهم زعموا لانفسهم بصرا بمصالح العباد أنفذ من بصر الله ، او لانهم جحدوا ما انزل الله فاطرحوه .. او لأنهم علموا الخير فيه ولكنهم آثروا هواهم ومصالحهم على طاعة أمر الله .. ولعله لهذا المعنى الاخير كان بعض الصحابة — رضوان الله عليهم — يميل الى التخفيف ويفسر كلمات « الكافرون والظالمون والفاسقون » هنا بأنها كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق — قاله الثورى عن ابن جريج عن عطاء — وانه ليس الكفر بالله كالكافرين — — راى ابن عباس — فأما الذين يقولون : « ان شريعة الله لا تصلح لهذا الزمان ، وانهم يراعون مصلحة الامة حين يحكمونها بشرائع اخرى غير شريعة الله ، فما من شك ان لفظ « الكفر » بكل معناه ينطبق عليهم ، وكذلك لفظ الظلم ، ولفظ الفسق » .

وفى تفسير القرطبى :

« قال طاوس وغيره : يكفر بنقل عن الملة ، ولكنه كفر دون كفر » ثم يقول القرطبى :

« وهذا يختلف : ان حكم بما عنده على انه من عند الله ، فهو تبديل له يوجب الكفر ، وان حكم به هوى ومعصية ، فهو ذنب تدركه المغفرة ، على اصل أهل السنة فى الغفران للمذنبين » .

ويذكر القاسمى فى تفسيره : « محاسن التاويل » قول اسماعيل القاضى فى « احكام القرآن » :

« ظاهر الآيات يدل على أن من فعل مثل ما فعلوا — اى اليهود — واخترع حكما يخالف حكم الله ، وجعل دينا يعمل به ، فقد لزمه مثل ما لزمهم من الوعيد المذكور ، حاكما كان او غيره » ..

وسالة ثالثة :

ما حكم الاسلام فى الاحكام المناقضة او المخالفة لشريعة الله ؟

لا اعتقد ان الفقهاء القدامى قد تعرضوا كثيرا لهذه المسألة ، ولهم عذرهم فى ذلك ، فلم يكن الاعتداء على شريعة الله قائما ، هذا وقد تعرض للمسألة الشهيد عبد القادر عودة فى الجزء الاول من التشريع الجنائى ، وخلاصة ما جاء فيها :

اذا جاءت القوانين واللوائح خارجة على نصوص القرآن والسنة ، أو خارجه على مبادىء الشريعة العامة وروحها التشريعية ، فهى قوانين ولوائح باطلة بطلانا مطلقا ، وليس لاحد أن يطيعها ، بل على كل مسلم أن يحاربها ..

ويرى : ان اساس نظرية البطلان فى الشريعة الاسلامية ، هو ان الاوامر والنواهى لم تجىء عبثا ، وأن الله انزل كتابه ، وارسل رسوله للناس ليطيعوه ويعملوا بما جاء به ، فمن عمل بما جــاء به الرسول فعمله صحيح ، لانه وافق أمر الشارع ، ومن خالف فقد بطل عمله لمخالفته امر الشارع ، والله تعالى يقول : « وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله » .. وتنطبق نظرية البطلان على عمل الافراد والجماعات، والحكام والمحكومين ، وتصرفات هؤلاء وهؤلاء ..

واذا طبقنا نظريـــة البطـــلان على القوانين واللوائح ، والقرارات والاوامر ، امكننا ان نقول على وجه القطع : ان التشريعات الوضعية على اختلاف اسمائها ، تكون باطلة بطلانا مطلقا ، كلما جـــاءت مخالفة لنصـــوص الشريعـــة الاسلامية ، او خارجة على مبادئها العامة ، او مباينة لروح التشريع الاسلامى ..

ويقول الشهيد عبد القادر عودة :

« ان اجماع الامة الاسلامية انعقد ـــ بعد وفاة الرسول ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ على انه لا طاعة لأولى الأمر الا فى حدود ما انزل الله .. ولا خلاف بين الفقهاء قولا أو اعتقادا فى أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وان اباحة المجمع على تحريمه كالزنا والســـكر ، واستباحة ابطـــال

الحدود ، وتعطيل أحكام الشريعة ، وشرع ما لم يأذن بـه الله ، انما هو كفر وردة ، واقل درجات الخروج على أولى الامر عصيان اوامره ونواهيه المخالفة للشريعة ... كما جاء في المنار والالوسى وأحكام القرآن للجصاص ..

ويضيف الشهيد عبد القادر عودة :

« ان اولى الأمر – بحسب نصوص الشريعة الاسلامية – ليس لهم حق التشريع المطلق ، وان حقهم فى التشريع قاصر على نوعين من التشريع : الاول – تشريعات تنفيذية يقصد بها ضمان تنفيذ نصوص الشريعة الاسلامية . والثانى – تشريعات تنظيمية لتنظيم الجماعة وحمايتها وسد حاجتها على اساس مبادىء الشريعة العامة . وهذه التشريعات لا تكون الا فيما سكتت عنه الشريعة ، فلم تأت بنصوص خاصة فيه ..

وان أولى الأمر حين يتولون التشريع المقيد على الوجه السابق ، يقومون به : اما باعتبارهم خلفاء للرسول ، واما نوابا عن الجماعة الاسلامية ، فان كانوا خلفاء للرسول فليس لهم ان يخرجوا على ما جاء به الرسول ، لانهم خلفوه بقصد تنفيذ ما جاء به ، وان كانوا نوابا عن الجماعة الإسلامية ، فليس لهم ان يخرجوا على ما تدين به هذه الجماعة وما تؤمن به ، والا خرجوا على حدود النيابة ، لان الجماعة لم تقمهم حكاما الا لاقامة الدين ، وحكم الجماعة على أساس الشريعة الاسلامية ، فأولو الامر – ايا كان السند الذى يستندون اليه فى حق التشريع – ليس لهم أن يخرجوا على نصوص الشريعة او مبادئها العامة او روحها التشريعية » .

* * *

وبعـــد

فمن الذى يتشبث بحكم الجاهلية ؟

انهما صنفان من الناس ، الصنف الاول ، الأنظمة التى تتحكم فى حاضر الشـــعوب المسلمة ومستقبلها ، لان حكم الجاهلية هو الذى يحقق لها مطامعها ، ويرعى لها مصالحها ، وييسر لطواغيتها ان تعيش حياة الأباطرة فى دولة الرومان ، وحياة الاكاسرة فى دولة الفرس ، وحياة المهراجات فى دولة الهندوك .. والصنف الآخر ، هيئة المنتفعين فى ظل اى من هــذه الانظمة ، حيث ييسر لهم حــكم الجاهلية ان يسرقوا وينهبوا ، ويبتزوا ويغتصبوا من اموال المسلمين ، بلا ادنى رقابة عليهم ، ودون ادنى محاسبة لهم .. !

* * *

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا ؟؟

● ومن احسن من الله حكما ؟!

« ان القوانين الوضعية .. حين تتطور مرة بعد مرة .. انما تسير فى اثر الشريعة الاسلامية ، وتاخذ بمبادئها .. وحين يقال : ان القانون الوضعى وصل الى الكمال .. يكون قد اوشك ان يبلغ فقط بعض ما بلغته الشريعة الاسلامية .. وان اليوم الذى تأخذ فيه القوانين الوضعية من الشريعة قد اصبح قريبا جدا ؛ واقرب مما يظن اكثر الناس .. » عبد القادر عودة .

هذه كلمات قالها الشهيد عبد القادر عودة فى كتابه « التشريع الجنائى » منذ زهاء ثلاثين عاما ، مقررا حقيقة من ناحية ، ومتفائلا من ناحية أخرى ، وبالطبع قد اقام تفاؤله على حسن الظن بالشعب المسلم أن يسترد لشريعة الله اعتبارها ، ولم يكن يدور بخلده ــ رحمه الله ــ أن كلماته هذه محسوبة عليه ، فهى تتضمن انذارا لحكم الطاغوت او حكم الجاهلية ؛ وانها سوف تكون فى القريب أحد المبررات لدى الطاغوت لانهاء حياته ، فحين تكون شريعة الاسلام سيدة الموقف فى ديار المسلمين سوف تنتهى الطواغيت الى غير رجعة ، وسوف يصبح حكم الجاهلية اثرا بعد عين ، ومجرد سطور مكتوبة فى صحائف سود تتلى على الاجيال القادمة للعظة والاعتبار .. !

ان كتاب الشهيد عبد القادر عودة « التشريع الجنائى الاسلامى » كتاب يحتل مكانه اللائق به فى المكتبة الاسلامية ، ويعتبر دفاعا عن شريعة الاسلام بقدر ما هو ابراز لقيمها ، واظهار لعظمتها ، وما فعله الشهيد وحده يعجز عنه عدد من علماء الدين ، وما أحوجنا الى الدراسات المقارنة ، فى وقتنا الحاضر ، حيث تواجه شريعة الاسلام الكثير من التحـديات السافرة من خصوم الاسلام واعدائه والحاقدين عليه ، من شراذم المستشرقين والمبشرين واليهود ، والماديين الالحاديين ، كما تواجه ايضا الكثير من الغمز واللمز . من عملاء أولئك جميعا وتلامذتهم ، هؤلاء الذين يدعون التقدمية والعصرية ، كتعويض عن مركبات النقص فى نفوسهم وعقولهم ، ويتزلفون من ناحيـة أخرى الى الانظمة الحاكمة فى ديار المسلمين ، هذه الانظمة التى تتظاهر بالاسلام شكلا ، وتتعامل بالعلمانية موضـوعا ، ولذلك يلاحظ أن الغالبية ممن يتولون الوزارة أو المناصب الكبرى فى البلاد الاسلامية دائمـا من أولئك العملاء والتلامذة للاتجاهات العلمانية . واذا قدر لعالم دين ان يتولى وزارة أو منصبا مرموقا ، فيشترط فيه أن يصلح مجرد اشغال حيز من الفراغ للاستهلاك لا اكثر .. !

***

● **الذين يحكمون بغير ما انزل الله :**

لقد اشاد القرآن بالتوراة ، وقال : « **انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور** » كذلك اشاد بالانجيل وقال : « **وقفينا على آثارهم ـ اى اليهود ـ بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة .. وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لمـا بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين** » .

واشـــادة القرآن بالتوراة والانجيل ، واصدار حكمه قاسيا على من لم يحــكم بهما ، انما ينطبق على التــوراة والانجيل المنزلين من عند الله ـ اى الاصليين قبل ان يلحقهما تغيير او تبــديل او تحريف ، ولذلك نرى القرآن وهو يقرر حقا ، يسجل ايضا تحفظا على اقرار هذا الحق ، فقال عن اليهود : يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به .. وقال عن النصـــارى « ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسـوا حظا مما ذكروا به .. » قال القرآن هذا عن اليهود والنصارى تفصيلا ، ثم قاله فى الآية التالية مباشرة اجمالا : « يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير .. » ..

هذا الاستطراد الهدف منه تأكيد رعاية القرآن لامانة التاريخ من جانب ، ومن جانب آخر ، الاشـــارة الى ان التسلسل الزمنى للرســالات السماوية ، اقتضى ان تكون الرسالة الخاتمة هى المهيمنة ، التى تضع القواعد الخالدة الثابتة لاستقرار الحياة البشرية فوق الارض ، لذلك جاء القرآن يقول لاهل الكتاب من اليهود والنصارى ، باعتبارهم اصحاب الرسالة السابقة مباشرة على الاسلام : « قـــد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهـــدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النـــور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » وفى مجال تال من سورة المائدة نفسها ، وبعد أن اشاد القرآن بالتوراة والانجيل ـ كما أنزلهما الله سبحانه ، عقب بقوله : « وانزلنا اليك الكتـــاب بالحـــق مصدقا لمـــا بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليـــه .. » .

ومن البدهى اذا كان القرآن الكريم يوجـــه رســـوله

ـ عليه السلام ـ الى ان يحكم بين اهل الكتاب بما انزل الله عليه ، الا يكون من باب اولى تحكيم شريعة الله فى حيـاة المسلمين انفسهم ، ثم ما هو الهدف من الرسالات السماوية ، اذا لم تكن شرائع حياة للناس ؟ ان القول بضرورة ان تحكم شريعة الله ، يعتبر تحصيل حاصل ، لان ذلك امر بدهى مسلم به عقلا ومنطقا وشكلا وموضوعا ، واذا كانت الدول ـ حتى المادية والعلمانية منها ـ لها دساتيرها وقوانينها التى تنظم حياة الشـعوب فيها ، فلماذا لا يكون للدول المسلمة دستورها وقوانينها التى تنظم حياة الشعوب فيها ، فلماذا لا يكون للدول المسلمة دستورها ، ولكن من كتاب الله وسنة رسوله ، بدلا من دساتير وقوانين من وضع الانسان الذى لايمكن ضمان عصمته من الهوى او حتى على الاقل الخطأ فى التقدير ؟

واذا كان مما لاخلاف عليه ، ان التشريع مقوم لا غنى عنه لامة من الامم ، فانه لا خيار للامة الاسلامية فى نوع التشريع الذى ينظم حيـاتها ، مادام لهـا تشريعها الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لانه تنزيل من حكيم حميد : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخـيرة من أمرهم .. ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا .. » .

اننا لا نتملق احدا من الناس ، ونحن نقرر ان شريعة الله هى التى يجب ان تنظم حياة المسلمين ، عقيدة ونظاما ، وحكومة ومجتمعا ، واخلاقا وسلوكا .. مادام الله هو الذى قرر ذلك ، ولاخيرة لنا من امرنا تجاه ما يقرره الله عز وجل .. اقول : اننا لا نتملق احدا من الناس ، فاذا كان من المسلمين هو المعارض ، قلنا له : ان الاسلام لا يعبأ بك ، ولايقيم لك

وزنا ؛ سواء اكنت من عامة الناس ام كنت من خاصتهم ، واذا كان من غير المسلمين المقيمين فى ديار المسلمين ، فاما ان يخضع لشريعة الله ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، والا فليرحل عن ديار المسلمين غير مأسوف عليه ، اما اذا كان من غير المسلمين ومن غير المقيمين فى ديار المسلمين ، فما شأنه بنا ؟ اننا لانوليه أدنى اعتبار ، لانه تحت أى اعتبار فى نظرنا . .

* * *

● خصائص ليست للمقارنة :

وفى البحث الموجز لا نركز على المقارنة بين شريعة الله وشريعة الناس ، ليس ذلك لانه لا وجه للمقارنة ، ولايمكن ان يكون للمقارنة وجه أو مبرر ، فالمفروض أننا ــ كمسلمين ــ يجب أن نعتز بشريعتنا . واذا كان مستساغا حتى للامم الوثنية كالبوذية والهندوكية أن تعتز بتراثها ، أفلا نكون ــ نحن المسلمين ــ اولى بالاعتزاز بتراثنا ؟

اذن فنحن فى هذا البحث الموجز لا نهدف اساسا الى المقارنة بين شريعة الله وشريعة الناس ، وانما نهدف الى ابراز بعض خصائص شريعة الله ، كى يعرف شبابنا المسلم الذى اصبح هدفا للتغرير به . أو التشويش عليه :

* * *

الخصيصة الاولى : شريعة الاسلام من عند الله :

اجل : ان شريعة الاســـلام هى شريعة الله ، وحسبها بذلك تقديرا لها واعتزازا بها ، لان فى كونها شريعة من عند الله ضمانا من الهوى ، وحصانا من كل عيب ، واستيعابا لمـــا تقتضيه مصالح المسلمين بخاصة ، ومصالح البشريـــة بعامة ، ويجب ان يلاحظ أنه من منطق هذه الخصيصة ، تتضح سائر الخصائص الاخرى ، التى سنعرض لها فيما بعد وفى ايجـــاز ان شاء الله ، واذا كان من المسلم به أن هـــذه الخصيصة تجعل شريعة الاسلام متفوقة على شرائع الناس فمن المسلم به أيضا ، ان لها نفس التفوق على الشرائع السماوية السابقة ايضـــا ، من حيث انها خاتمة الشرائع ، ومهيمنة عليها ، ومن حيث عموميتها وشمولها . .

الخصيصة الثانية : شريعة لها الكمال :

لأنها جاءت مستكملة كل ما تحتاجه الشريعة الكاملة ، ومستوفية لسائر القواعد والمبادىء التى تنهض بالبشريـــة قاطبة ، وملبية ســـائر حاجات هـــذه البشرية فى حاضرها ومستقبلها القريب والبعيد ، وما كان له صفة الكمال ، يجب ان يكون منزها من كل نقص أو عيب أو تصور . .

الخصيصة الثالثة : شريعة عامة شاملة :

عامة لأنها تطبق على الناس جميعا بلا تفرقة وبلا امتياز لفرد على فرد ، ولا لطبقة من الناس على طبقة أخرى منهم ،

فالكل أمامها ســواء ، وقد تقرر هذا بقول الله تعـالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »** وبقول النبي عليه السلام **« الناس سواسية كاسنان المشط »** وبقوله : **« المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم »** وبقوله : **« لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »** .

وشاملة ، لانها تشمل نواحي الحياة جميعها ، من نظام حكم ، واقتصاد واجتماع وسياسة وسلوك واخلاق ، واسرة وطفولة .

الخصيصة الرابعة : شريعة لها الدوام :

لأنها لا تختص بزمن دون زمن ، بل اراد الله لها الخلود ، ولا صلة لدوام الشريعة بالجمود ، فالشريعة لا تعطى ظهرها لكل ما هو جديد ، بل تستقبله ، وتزنه بميزانها ، اذن فهى شريعة متطورة ، والمبادىء العامة هى الثابتة ، وغير قابلة للتعـديل او التبديل مهما مرت الايام وطالت الازمان ، مع حفاظها على صلاحيتها لكل زمان ومكان ، وقد اهتم العلماء بالاعجاز البيانى او البلاغى للقرآن الكريم ، ولم يهتموا اكثر بالاعجاز التشريعى لكتاب الله عز وجل . مع ان كل الوان الاعجاز التى تحدث عنها العلماء ، البلاغى او العلمى أو غيرهما يتفوق عليها الاعجاز التشريعى ، وبه يكون القرآن معجزا لكل الناس ، ولكل جيل من الاجيال ، ولكل زمان من الأزمان ، والى ذلك يشير المرحوم الشيخ محمد ابو زهرة فى رسالته : « شريعة القرآن »(١) :

---

(١) العدد رقم ٣١ من سلسلة الثقافة الاسلامية .

« فما اشتمل عليه القرآن من أحكام سواء ما كان منها ما يتعلق بالاسرة أو ما يتعلق بالمجتمع . او ما يتعلق بالعلاقات الدولية ، فريد فى بابه لم يسبقه شرع سابق ، ولم يلحق بما وصل اليه شرع لاحق » ..

الخصيصة الخامسة : شريعة قائمة على العدل :

لأن الشريعة التى يخضع الناس لها بلا تفرقة بينهم فى اللون او فى الحسب او فى الجاه ، لا تزن بميزانين ولا تكيل بمكيالين ، القوى لديها ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف لديها قوى حتى يؤخذ الحق له ـ لابد أن يقوم مثل هذه الشريعة على العدل ..

الخصيصة السادسة : شريعة لها ضوابط :

لأنها مقيدة بضابطين رئيسيين هما كتاب الله والسنة الصحيحة ، وبضوابط أخرى ثانوية اصطلح عليها علماء السلف منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم ـ لانها وثيقة الصلة بالضابطين الرئيسيين ، وميزة هذه الخصيصة انها تسد الباب فى وجه الهوى ، ويلاحظ ان الرسول نفسه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ متبع لما انزل عليه : ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها .. » وما صدر عنه من اقوال وافعال ، هو تشريع لكنه يدور فى اطار المبادىء العامة التى اوحى بها اليه ..

ثم ان هذه الضوابط لا تحول دون ان يكون باب الاجتهاد مفتوحا على مصراعيه : ولكن ليس لكل من هب ودب ، بل لمن توافر فيه العلم والمعرفة مكونات هذا الاجتهاد ، والرسول

عليه السلام قد اجتهد ، واجتهد الصحابة فى حياته وبعد مماته ، ولم يغلق باب الاجتهاد الا فى فترات الضعف التى بدت على حساب تاريخ الاسلام والمسلمين ..

* * *

هذه هى الخصائص العامة او الجوهرية لشريعة الله عز وجل ، وقد اوجزها الشهيد عبد القادر عودة فى مؤلفه : « التشريع الجنائى » فى ثلاث : الكمال والسمو والدوام . لكنه ــ رحمه الله ــ عقب بقوله :

« هذه هى الميزات الجوهرية للشريعة الاسلامية ، وهى على تعددها وتباينها ، ترجع الى اصل واحد ، نشأت عنه جميعا ، بحيث يعتبر كل منها اثرا من آثاره ، وهذا الأصل هو : ان الشريعة الاسلامية من عند الله ومن صنعه ، ولولا ان الشريعة من عند الله لما توافرت فيها صفات الكمال والسمو والدوام ، تلك الصفات التى تتوافر دائما فيما يصنعه الخالق ، ولا يتوافر شىء منها فيما يصنعه المخلوق » .

وفى نفس المصدر يشير الشهيد عبد القادر عودة الى بعض الأدلة على توافر هذه الميزات فى شريعة الله ، ويرى ان هذه الميزات متوافرة فى كل مبدأ ، وفى كل نظرية ، وفى كل قاعدة قانونية ، جاءت بها الشريعة الاسلامية .. ثم يعرض طائفة من النظريات والمبادىء الشرعية التى لم تعرفها القوانين الوضعية الا اخيرا ، او لم تعرفها بعد ، والدليل على توافر الميزات ــ كما يقول ــ هو الواقع الذى لا يكذب ، وليس بعد منطق الواقع حاجة لدليل او استدلال .

ويضرب الشهيد عبد القادر عودة مثلا بمبدأ المساواة ، ويرى ان المساواة وجدت فى شريعة الله بصفة مطلقة ، فلا قيود ولا استثناءات .. فرضت على الناس كافة ، وقد نزلت نظرية المساواة على الرسول — عليه السلام — وهو يعيش فى قوم أساس حياتهم وقوامها التفاضل ، فهم يتفاضلون بالمال والجاه ، والشرف واللون ، ويتفاخرون بالآباء والامهات ، والقبائل والاجناس .. لكن لم تكن الحياة الاجتماعية وحاجة الجماعة هى الدافع الى تقرير نظرية المساواة .. وانما كان الدافع لتقريرها من وجه ، هو رفع مستوى الجماعة ودفعهم نحو الرقى والتقدم ، كما كان الدافع من وجه آخر ، ضرورة تكميل الشريعة بما تقتضيه الشريعة الكاملة الدائمة من مبادىء ونظريات ..

واذا كانت نظرية المساواة — كما يقول رحمه الله — قد عرفت فى الشريعة الاسلامية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا ، فان القوانين الوضعية لم تعرفها الا فى اواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .. واذن فقد سبقت الشريعة الاسلامية القوانين الوضعية فى تقرير المساواة بأكثر من احد عشر قرنا ، ومع هذا فالقوانين الوضعية تطبق نظرية المساواة تطبيقا محدودا ، بالنسبة لشريعة الاسلام التى توسعت فى تطبيق النظرية الى اقصى حد .

وما يقال فى نظرية المساواة ، يقال ايضا فى مبدأ الحرية بشتى الوانها : حرية التفكير ، وحرية الاعتقاد ، وحرية القول ، كما يقال كذلك فى مبدا الشورى ، ومبدأ تقييد سلطة الحاكم ، هذا المبدا الذى تقرر فى شريعة الاسلام ، فكانت اول شريعة قيدت سلطة الحاكم ، وحرمته حرية التصرف ،

والزمته أن يحكم فى حدود معينة ، ليس له ان يتجاوزها ، بالاضافة الى اعتباره مسئولا عن عدوانه وخطئه ..

ويقول الشهيد عبد القادر عودة فى المرجع السابق :

« ان نظرية تقييد سلطة الحاكم تقوم على ثلاثة مبادىء اساسية هى : وضع حدود لسلطة الحاكم ، ومسئولية الحاكم عن عدوانه واخطائه ، ثم تخويل الامة حق عزل الحاكم .. » .

* * *

قلنا : اننا نربأ بشريعة الله أن تكون فى كفة والشرائع الوضعية فى كفة أخرى للموازنة بينهما ، وقد شغل المتأخرون من علمائنا انفسهم باجراء الموازنة والمقارنة ، مضطرين الى ذلك اضطرارا ، بعد ان بدا التحرش بشريعة الله والتطاول عليها ، أو — على الاقل — الاقلال من شأنها أو — على اقل القليل — تجاهلها ..

وكأنى بعلمائنا الاجلاء قصدوا الدفاع عن شريعة الله ، والاعلاء من شأنها ، وهذا لون من النقد السلبى ، حين لا يمكن للعلماء ان يجهروا بالتنديد بحكم الجاهلية الذى نعايشه فى سائر ديار المسلمين ، فليلجأوا الى الحديث عن مزايا شريعة الله وخصائصها مقارنة بشرائع الناس ..

* * *

● مهاترات .. ومناوشات :

الحــق أن شريعــة الاســلام تتعرض اليــوم لمهاترات ومناوشات معا ، المهاترات يجترها أدعيــاء الاســلام ، والمناوشات يجترها أعداء الاســلام والحــاقدون عليه ، والمهاترون يتفلسفون بلا فلسفة ، ويرتدون رداء الفقهــاء بلا فقه ، وهم : اما كالببغاوات تردد مالاتدرك ، واما كالادوات تؤدى ما عليها دون ان تفكر ، واما اعضاء عمالة هابطة كل ما يهمها ان تكون جديرة بالمكافأة على عمالتها ، لدى الذين يملكون ان يقدموا المكافأة ويجزلوا العطاء ، ولا يمكن ان نتجاهل شرذمة رابعة ، مصابة بمركبات النقص ، تحاول جاهدة ان تعوض ما لديها من نقص عن طريق التظاهر بالمدنية والتقدمية والعصرية ، ومثل هذه الشرذمة — فى الغالب — تكون قد تلقت طرفا من العلم فى الغرب ، أو تتلمذت الى عملاء الحضارة الغربية المزعومة فى ديارها ..

وهذه الشراذم جميعها تبدأ من مفترق طريقين لكنهما منحرفان ، ويلتقيان فى النهاية عند مجمعيهما ليصلا الى فكرة واحدة ، هى اقصاء شريعة الله عن حياة المسلمين ، الا ان لكل من الفريقين اسلوبا خاصا به ، أخفهما شرا الذى يدعى ان الاســلام دين فحسب ، أو عقيــدة فحسب ، وانه من الافضل للاسلام — حفاظا على قيمته — ان يظل من خصائص الفرد المسلم ، دون ان تكون له علاقة بالدولة ، ومثل هذا الاسلوب أصبح اسلوبا ممجوجا وسمجا ، وغير مقبول حتى لدى الناشئة من المسلمين .. واقل الاسلوبين شرا ، الذى يزعم ان الحياة تتقدم سريعا الى الامام ، ولا يمكن ان تعود خطوة واحدة الى الوراء ، ويستحيل منطقيا وعمليا ان نطبق

على حياتنا المعاصرة شريعة مضى عليها أربعة عشر قرنا ، من الجائز انها كانت تصلح وقتها لبيئتها ، ولعصرها ، وهؤلاء وأولئك يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ..

واصحاب الاسلوب المدعى ـ فصل الدين عن الدولة . او فصل الدولة عن الدين ـ مجرد ببغاوات مقلدة ، ومستوردة لافكار من الغرب المسيحى ، وما دام فى اوربا قد تم فصل الكنيسة عن الدولة ، بعد صراع عنيف على السلطة بين الكنيسة والاباطرة ، وبعد ان عجزت الكنيسة عن ان تحل ما بينها وبين الحياة الاوروبية من تناقض ، بالاضافة الى ان طبيعة المسيحية ذاتها لا تسمح بارتياد السياسة والسلطة، ولذلك توهم أصحاب اسلوب « فصل الدين عن الدولة » أن ما يطبق على المسيحية ، يطبق على الاسلام ، دون أن يكون لديهم ثقافة أو فقه ، او ادنى دراسة عن طبيعة الاسلام ، وان الاسلام دين بلا دولة ، ليس هو الاسلام الذى رضيه الله لعباده دينا ..

والحق اننا فى غنى كل الغنى عن أن نشغل انفسنا بالرد على المهاترات التى هى اهون لدينا من الرد عليها ، وما يقال عن المهاترات يقال ايضا عن المناوشات التى تدعى أو تزعم عدم صلاحية الاسلام للحياة المعاصرة ، وتدعى أو تزعم أن العمل بشريعة الاسلام ، يعنى الرجوع بالعالم الى الوراء زهاء اربعة عشر قرنا مثلا .. !

يجدر بنا ان نسجل هنا كلمات قالها الامام الشهيد حسن البنا ، منذ اكثر من ثلث قرن من الزمان(١) :

---

(١) مشكلاتنا فى ضوء النظام الاسلامى .

« وقد يقال : كيف يعقل اننا نطبق اليوم نظما جاءت لامة عاشت قبلنا بأربعة عشر جيلا فى ارض غير ارضنا ؟ وعلى لون من الحياة غير الوان حياتنا ؟ واين سنة التطور وقوانين التقدم والارتقاء ؟ ونقول لهؤلاء كذلك : انكم أيضا لم تفهموا طبيعة الاسلام الحنيف ، الذى جاء للناس « فكرة سامية ، تحدد الاهداف العليا ، وتضع القواعد الاساسية ، وتتناول المسائل الكلية ولا تتورط فى الجزئيات ، وتدع بعد ذلك للحوادث الاجتماعية والتطورات الحيوية أن تفعل فعلها وتتسع لها جميعا ، ولا تصطدم بشىء منها .. » .

ثم قال بعد ان عرض العديد من الادلة المقنعة :

« فهل يقال بعد هذا : ان فى الرجوع الى النظام الاسلامى رجعية وجمودا ؟ وليست فى الدنيا شريعة تقبل التطور ، وتساير مقتضيات التقدم ، وتتمتع بمعانى المرونة والسلاسة والسعة ، كشريعة الاسلام الحنيف ؟ « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، ويتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » هذه الكلمات تصلح تبصرة وذكرى ، ولكن لكل عبد منيب ، وتكفى للاقناع ، ولكن لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد .. وايضا هذه الكلمات لا تصلح تبصرة وذكرى ، ولا تكفى لاقناع من ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى ابصارهم غشاوة .. » .

ادعاءات وافتراءات :

قيل فى الشريعة الاسلامية ما لم يقله مالك فى الخمر ، واصحاب قالة الادعاءات والافتراءات هم المستشرقون

الحاقدون ، وتلامذتهم او عملاؤهم فى ديار المسلمين ، والعجيب ان اجترار الحقد الصليبى على الاسـلام ، ليس وقفا على المستشرقين والمبشرين وعملائهم وتلامذتهم ، وانما هو ممتد حتى لمن كان عملهم قاصرا على السـياسة ، حتى امثال اللورد كرومر جلاد بريطـانيا فى مصر ، وسـفاح مجزرة دنشواى ، تقايأ كل احقاده على الاسلام فى كتابه الذى اصدره فى بلاده بعد طرده من مصر ، تحت عنوان « مصر الحديثة » فاللورد لا يعترف بالاسلام شريعة ومعاملات ، ولا يعترف به صالحا لكل زمان ومكان ، ويرى أن الاسـلام لا يفيد منه الا الطبقات المنحطة .. وما الى ذلك من السفه الذى لم يخجل منه اللورد غير الجدير بأدنى شىء من الاحترام ..

وما اكثر ما افترى على شريعة الاسلام من مفتريات ، وقد بلغ جميعها من الهوان ، ما جعلها اهون من أن تناقش او يؤبه لها ، وربما كان اتهام الشريعة الاسلامية بأنها مستمدة من القانون الرومانى من أكثر الاتهامات شيوعا ، وتداولا ، وتشجيعا على اجترار الاقلام الصليبية العفنة .

هذا وقد اجرى المرحوم الشيخ محمد ابو زهرة فى رسالة له « شريعة القرآن » موازنة سريعة بين شريعة الاسلام وشريعة الرومان ، وفى هذه الموازنة العاجلة تأكيد بما لايدع مجـالا لشاك أو مستريب ، بأن شريعة الله فى درجة فوق مستوى العقل البشرى ، اشار رحمه الله — الى ان قانون الرومان قـد استوى على سـوقه ، وبلغ نهـاية كمـاله فى عهـد جوستنيان سنة ٥٣٣ م . وقد جاء ثمرة تجارب قانونية منذ انشاء روما سنة ٧٤٤ قبل الميلاد ، اى قرابة ثلاثة عشر قرنا ، ظهرت فيها الفلسفة اليونانية وبلغت اوجهـا ، فاستعانوا

بقوانين سولون لاثينا ، وقوانين ليكورغ لاسبارطة ، والنظم اليونانية عامة ، والمناهج النظامية والفلسفية التى فكر فيها الفلاسفة اليونان ، وفى ايجاز يمكن ان يقال : ان القانون الرومانى هو خلاصة ما وصل اليه العقل البشرى على مدى ثلاثة عشر قرنا فى تنظيم الحقوق والواجبات ..

ثم ينتهى رحمه الله الى القول : بانه فى اى جانب اخترت الموازنة بين ما اشتمل عليه القرآن ، وما اشتملت عليه الشرائع التى سبقته او عاصرته بدا لك الفرق بين السمو الروحى ، والاخلاق الارضية ، فالقوانين التى تسير عكسا لا طردا – كالقانون الرومانى قوانين ظالمة .. كيف ؟ لانها تستمد منطقها من القوة الغالبة فكلما كان الشخص من ذوى الجاه ضعفت عقوبته ، وكلما كان من الضعفاء زادت ، وذلك عكس شريعة الاسلام ، حيث تسير العقوبات بنسبة تصاعدية مع الاشخاص ، لابنسبة عكسية ،فتكبر جريمة الكبير وتصغر عقوبة الصغير ، لانه اذا هانت النفس على صاحبها ، سهل عليه الوقوع فى الجرائم ، فكان التخفيف ، واذا كبرت قيمة الرجل فى أعين الناس ، كانت عليه تبعات بمقدار عظمته ، وكانت صغائره كبائر ، وتضاعفت العقوبة ، فالجاه والثروة ، وغيرهما ، ليست متعا خالصة خالية من تبعات ، بل عليها تبعات بقدرها .. » .

ويقول الدكتور عبد المنعم ماجد فى مؤلفه : تاريخ الحضارة الاسلامية فى القرون الوسطى . بعد ان عرض للفقه الاسلامى وتاريخ حضارته ونموه :

« مما رايناه من نمو التشريع الاسلامى ، ننبذ فكرة أن

التشريع الاسلامى متأثر بتشريع الرومان أو الفرس أو غيرهم ، فهو تشريع اسلامى صرف ، يعبر عن طبيعة المجتمع الاسلامى المتطور ، فلم يثبت لدينا اطلاقا علميا ، أن التشريع الاسلامى أخذ من اى قانون آخر ، او انه وجد فيه اى تعبير لاتينى او فارسى أو غيره ، فضلا عن وجود نظم فى التشريع الاسلامى ، لا اصل لها فى اى تشريع آخر .. » .

* * *

● **الاسلام منهج شامل :**

هـذا مانؤمن به ـ نحن المسلمين ـ وعلى المتشككين أو الجاحدين او المرجفين ان يثبتوا لنا عكس ما نؤمن به ، والآية الاخيرة نزولا من كتاب الله تعالى ـ على أرجح الاقوال(١) وهى قوله تعالى : **اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا** ـ من سورة المائدة ـ قطعت بأن شريعة الله شريعة متكاملة ومنهج شامل ، انتهت بذلك ، لتظل ملبية حاجات البشرية الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، وقد قضت نهائيا على ما سبقها من الحكم الجاهلى ، وسدت الباب فى وجه اى تسلل للحكم الجاهلى ، والعبرة ليست بواقع المسلمين اليوم ، وانما بواقع شريعة الاسلام كما أرادها الله عز وجل ..

---

(١) وقيل أن آخر آية نزلت هى الآية الحادية والثمانون بعد المائتين ، من سورة البقرة « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » وللتوفيق بين القولين ، قيل ان آية المائدة « اليوم اكملت » .. الى آخر آيات التشريع نزولا .. اما آية البقرة فهى آخر القرآن نزولا من حيث الزمن .

يقول العقاد رحمه الله فى كتابه : ما يقال عن الاسلام :

« العقيدة الشاملة هي التى تضع للناس مقياس الاعمال والاخلاق ، وليست هى العقيدة التى تعمل بأيديهم ما يطلب منهم ان يعملوه احرارا فى الراى والشعور ، ولو كان شفيع القانون للبقاء ؛ ان ينفذه كل خاضع له حرفا حرفا ، وان يمتنع خلافه أصلا وفرعا لما كتب لقانون بقاء ..

ثم يقول « ان العقيدة الدينية سند للروح تعتمد عليه فى شدائد الحياة ، وقسطاس للاداب والعادات ترجع اليه فى قياس الأخلاق والاعمال ، وانها — بالنسبة للجماعات — أو للامم التى تدين بها — قوة فعالة ، ولو عن طريق المقاومة ، يحسب لها حسابها فى التاريخ .. والاسلام بهذه الصفة — عقيدة فردية اجتماعية ، لا يجاريها دين من الاديان ... ان قوة الاسلام العالمية تقابلها فى التاريخ دولة الاكاسرة ودولة القياصرة ، كما تقابلها دول الحروب الصليبية ، ودول الاستعمار ودول التبشير والدعاية المذهبية على اختلاف الدعاوى والغايات .. والاسلام هو الذي منح شعوبه هذه القوة التى ضارعت تلك القوى كافة ، وصمدت لها وهى فى دور الضعف والجمود ، وقد صمدت قوة الاسلام لخصومها بمبادئها التى تدين بها ، ولم تصمد لاولئك الخصوم بالمبدأ المستعار ، كما استعار اصحاب المذاهب المادية مبدأ الوطنية ، وهم ينكرونه ليخلقوا به قوة فى موضع الوهن ، وايمانا فى موضع الخوف والهزيمة » .

* * *

المعـــوقـــات

المعوقـــات

● الأهواء والنزعـــات :

لو اننا أجرينا استفتاء بين سائر الشـــعوب المسلمة ، بشان تطبيق الشريعة الاسلامية ، لجاءت النتيجة بالموافقة محققة ، اذ من غير المستساغ ان يرفض المسلم حكم شريعة الله ، ما بقى للاســـلام مكان فى نفســـه ، وبالرغم من أن المصطلحات الدستورية المستوردة تجمع على أن الشعب مصدر السلطات ، وهو كلام غريب على الاسلام ، لان مصدر السلطات لديه ليس الا شريعة الله .. الا ان الشعب تمشيا مع الدساتير الوضعية فى هـــذه المسالة بالذات ـــ لا يقدم ولا يؤخر ، والدليل على ذلك ان استفتاء جرى فى مصر اواخر عام ١٩٧٠ م . على تطبيق الشريعة الاســـلامية ، وكانت الموافقة شبه اجماع ، ومع ذلك لا يزال تطبيق الشريعـــة الاسلامية متعثرا بل متجاهلا ، ومجرد التفكير فيه يلقى من اللامبالاة والاضطهاد الوانا ، ومن السخرية والعنت اصنافا ، وخلاصة القول بعد ذلك : ان الشعوب المسلمة اليوم لا تقدم ولا تؤخر ، ولا يحسب أدنى حساب لارادتها او مشيئتها ، لان هذه الشعوب ذاتها اصبحت ملكا لارادة الانظمة الحاكمة ومشيئتها ، وهذه الانظمة نفسها ارادتها أو مشيئتها ملك للقوة الخارجية صاحبة النفوذ فى العالم ، الصليبية والشيوعية على سواء ، وبالرغم من الخلاف المستعور بين القوتين فى

الايديولوجية ، الا انهما متفقتان تماما على الوقوف فى وجه الاسلام ، حتى لا تقوم له ولا لشعوبه المغلوبة على أمرها قائمة ..

ومساكين أولئك الكتاب والخطباء الذين ظنوا ان وجود نص فى الدستور يقرر « ان الاسلام دين الدولة » يبرر مطالبتهم — فى الحاح — بتطبيق شريعة الله عز وجل ، ومادروا ان مثل هذا النص ليس أكثر من حبر على ورق ، أو مجرد حروف ميتة تؤلف عبارة تقرأ للتسلية أو الاستهلاك فحسب ، والعبرة ليست بالنص المكتوب ، وانما بصدق النوايا ، وقوة العزائم ، فليس فى انجلترا دستور مكتوب ، وانما عرف وتقاليد لهما قداستهما ، والسر فى ذلك ، ان للشعب الانجليزى وجودا ، والحكم هناك بلا اهواء أو مطامع او شهوات ..

اذن ، فالاجابة عن سبب تعطيل تطبيق شريعة الاسلام فى ديار المسلمين ، انما تقوم على عوامل ثلاثة رئيسية أو جوهرية :

اولا — ان الشعوب المسلمة لا وجود لها الا شكلا ومظهرا ..

ثانيا — ان الانظمة الحاكمة ذوات اهواء ، ولا تحقق مطامعها الا فى ظل حكم جاهلى .. يعتمد على النزعة العلمانية، ويرضى عنه سادة هذه الانظمة ..

ثالثا — ان عنصر التوعية معطل لدى الشعوب المسلمة ، بسبب قصور علماء الدين وتقصيرهم من ناحية ،

ومن ناحية اخرى ، اختفاء الجماعات الاسلامية القوية فوق خشبة المسرح ، نتيجة لضغوط القوى الخارجية على الانظمة التى لا تملك الا السمع والطاعة ، منكسة رءوسها ، مقوسة ظهورها .

ولندع الحديث عن العاملين الاول والاخير ، لان حقائق الامور والاوضاع والواقع الملموس ، مما لا يحتاج الى بيان ، بالاضافة الى أن الحديث عن العامل الاول « ضياع الشعوب » يستلزم الحديث عن العامل الثالث : قصور العلماء وتقصيرهم» والشعوب المسلمة بلا توعية اسلامية صحيحة عاجزة عن أن تتحرك ، والعلماء فى سائر بلاد المسلمين ، ليسوا مستعدين لان يؤدوا واجبهم ، فهم مشغولون عن الدين بدنياهم ودنيا السلطان معها ، وعندما نستقرىء التاريخ سيرة علماء السلف ، تصاب اعصابنا بنكسة نحن فى غنى عنها ، فعندما مات شيخ الاسلام العز بن عبد السلام ، قصد الى داره حاكم مصر الظاهر بيبرس ، ودق بعصاه على الارض ، ثم قال وهو يتنفس الصعداء : « الآن استقر ملكى » كأن عالما واحدا كان يهدد ملكا بأسره . .

ونحن ــ لكى نكون منصفين ــ لا نطلب من علماء الدين أن يتصدوا للباطل لان هذا شاق عليهم اليوم ، ولكن نطالبهم بألا يساندوا الباطل بصمتهم ، والعازفون عن دنيا النـاس قادرون على الصمت ــ وهذا أضعف الايمان ــ أما الراغبون فى دنيا النـاس ، فهم العاجزون عن معارضة الباطل ولو بالصمت . . قلت : اننا نرجىء الحديث الا عن العامل الثانى ، وهو اهـواء الانظمة الحاكمة ، والاهواء مجسدة فى حكم الجاهلية ، والمقابل لحـكم الجاهلية هى شريعة الله القائمة على العدل ، ولذلك تجد الآيات القرآنية التى حذرت رسول

الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ اتباع أهواء أهل الكتاب وغيرهم ، عقب عليها بالآية الكريمة : ((**افحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**)) .

والذى لا جدال فيه ان حكم الهوى يقوم على السلطان المطلق ، لتحقيق اكبر قدر من المطامع واكبر قدر من المصالح ، وفى مقدمة هذه وتلك حرية الحاكم المطلق فى التصرف والسلوك دون مساءلة او محاسبة ، وفرق كبير أن يعتبر الحاكم فى ظل حكم الجاهلية نفسه ذاتا مصونة لا تمس ، وانه فوق القانون وفوق الدستور ، وبين أن يعتبر الحاكم نفسه فى ظل الاسلام انسانا عاديا ، ليس فوق شريعة الله ، بل هو خاضع لها ، لا يتميز على غيره الا بجسامة التبعات والمسئوليات ..

ان شخصية الدولة تكاد تكون مركزة ومجسدة فى شخصية الحاكم ، فى ظل جاهلية الحكم ، اما فى ظل اسلامية الحكم ، فان شخصية الحاكم تذوب فى شخصية الدولة ، والحكم الجاهلى يقوم على الشعارات ، والحكم الاسلامى يقوم على المبادىء فى اطار شريعة الله عز وجل ، واصطلاح الديمقراطية المستوردة من الغرب ، لا يعنى فى ظل الحكم الجاهلى فى ديار المسلمين : حكم الشعب بالشعب وللشعب .. كما هو مقرر لمفهوم الديمقراطية ، وانما يعنى ديكتاتورية الحكم ، وحمايته باسم الديمقراطية الشعار ..

وقد يقال : ان هناك مجالس برلمانية ، او مجالس شورى لا تخلو منها دولة مسلمة ، اذن فالحكم ديمقراطى ، وفى نفس الوقت اسلامى ، لانه قائم على الشورى ، والشورى احدى مقومات الحكم الاسلامى ، وهذا القول صحيح فى

شطره الاول : وجود مجالس برلمانية او مجالس شورى ، وغير صحيح على الاطلاق فى الشطر الآخر منه ، ومادام من حق رئيس الدولة بنص الدستور ان يحل مثل هذه المجالس ويسرح اعضاءها ، فأى معنى لوجودها ، والامثلة اكثر من ان تحصى ..

ولك ان تسال مثلا : هل هناك مصرى واحد او عربى واحد يقر ارسال جيش مصرى الى اليمن الشمالية ليقتل شعب اليمن الذى لم يبدأ عدواننا ، ولم يفكر فى شن حرب على مصر ؟ ومع ذلك صفق مجلس الشعب المصرى لهذه المهزلة ، واضفى علماء الدين صفة الشهداء على المعتدين . وعلى نفس المستوى : ارسال الاسلحة الى القبارصة اليونان لقتل القبارصة الاتراك المسلمين ، وارسال سوريا جيشا الى لبنان ليساند الصليبية هناك ضد الفلسطينيين واللبنانيين المسلمين ، وارسال جيش اليمن الجنوبية الى الحبشة لمساندة السفاح الصليبى مانجستو فى قتل المسلمين الاريتريين .. وفى كل من هذه الدول مجالس برلمانية قائمة على قدم وساق ..

ولنعد من حيث بدأنا :

لنؤكد ان الانظمة الحاكمة فى ديار المسلمين تقوم على الاهواء والنزعات الفردية ، وهذه الاهواء والنزعات الفردية تمثل العقبة الاولى فى سبيل تحقيق اعز امنية لدى الشعوب المسلمة ، الا وهى ان يصبح الاسلام نظام حياة فى ديارها ..

* * *

● القلق والمخاوف :

اذا كان هناك أمر يقلق الانظمة الحاكمة ، واشياعها ، ويبعث الفزع والروع فى نفوسهم ، فهذا الامر هو ان يصبح الاسلام سيد الموقف فى البلاد ..

وهذا شىء منطقى .. ففى أوائل الثورة ، دار نقاش بين الاخوان وبعض رجال الثورة ، بشأن تطبيق شريعة الاسلام ، واثارة هـذا المطلب من جانب الاخوان المسلمين شىء طبيعى ، فالذين وضعوا المصاحف على صدورهم ليلة الانقلاب العسكرى ، يشجع سلوكهم هذا على ان يطلب منهم العمل على تطبيق الشريعة الاسلامية ، لكن صوتا ـ صوت جمال عبد الناصر ـ انبرى فى انفعال ، ومتسائلا فى استنكار : اتريدون منا ان نعود الى عصر الجمال والحمير .. ؟؟ ومثل هذه الصراحة كانت كافية للكشف عن النوايا ، وبداية الخلاف الذى ادى الى ضرب جماعة الاخوان مرتين فى عهد الثورة . وخلال احد عشر عاما .. وعلم فيما بعد ان حملة كتاب الله هم الذين قرت اعينهم بحرق المصاحف فى المركز العام وفى شعب الاخوان .. وبهتاف الشيوعية عام ١٩٦٥ بعد اعتقال الاخوان : لا اسلام ولا اخوان .. !

والحقيقة ان مثل جمال عبد الناصر لم يكن يخشى أن تعود مصر الى عهـد الجمال والحمير .. بقدر خشيته أن يتصدى الاسلام لنزواته واهوائه ومصالحه ومطامعه ، فقد كان يحلم بامبراطورية فرعونية أو عربية تمتد من الخليج الى المحيط .. كان يود أن يكون أتاتورك ونابليون وجنكيزخان وتيمورلنك معا ، ولم يكن ينغص عليه أحلامه سوى الاسلام اذا قامت له قائمة فى مصر .. ولولا ان الله ـ

سبحانه ــ وجه اليه الضربة القاضية فى هزيمته فى الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ ، لذاق الشعب المصرى ومعه الشعب العربى الأمرين من احلامه او مطامعه ..

وهكذا يساور القلق سائر الانظمة فى ديار المسلمين من قيام نظام اسلامى ، ولك ان تتصور حال الانظمة الحاكمة اسرا كانت أم عصابات اليوم ، وكيف تحيا حياة الأباطرة والاكاسرة والمهراجات ، لك ان تتصور كم تملك من قصور ومتاع وأموال فى بلادها أو خارج بلادها فى اوربا وغيرها .. منذ بضع عشرة سنة ، بلغت تكاليف زفاف ابن أحد الملوك العرب المعزول فى هيلتون اثينا عاصمة اليونان ، اكثر من مليون جنيه استرلينى ، أتدرون من كانت ضيفة الشرف فى حفلة الزفاف ؟ انها الممثلة العالمية المشهورة « صوفيا لورين » والذين يقدر لهم ان يتابعوا ما تنشره صحف أوربا عن بذخ امراء البترول ، وبعثرة أموال المسلمين فى اقتناء القصور فى امريكا واوربا ، والفنادق ودور اللهــو ، بالاضافة الى اقتناء الرقيق الابيض لايام أو ساعات معدودة .. يتأكد لديهم ان الاســلام حين يحكم ، سوف يكون سدا منيعا فى وجوه هؤلاء ونزواتهم وشهواتهم ..

والحلقة ــ غير المفقودة فى هذه القضية ، هى ان الانظمة المعاصرة فى ديار المسلمين لاتطيق ان تلتزم بمبادىء الاسلام فى الحكم ، فالحكم الجاهلى تشريف والحكم فى الاسلام تكليف ، وفرق بين التشريف والتكليف ، وبين التربع فوق الدستور والقانون ، والخضــوع لاحكام شريعة الاســلام ، وبين المخصصات والامتيازات للحاكم وسائر اسرته ، وانعدام هذه المخصصات والامتيازات فى ظل الاسلام ، وفرق بين أن يعانى الحاكم وسائر أسرته واعوانه واذنابه وهيئات المنتفعين منه

من البطنة والتخمة ، والحصـــول على لقمـــة العيش بشق الانفس للشعب ..

[illegible] اول خا [illegible] للمسلمين الامر ــ ابو بكر رضى الله عنه ــ صعد ‌مبر وقال :

« ايها الناس ، كنت احترف لعيالى فأكتسب قوتهم » فأنا الآن احترف لكم ، فافرضوا لى من بيت المال » وامتنع عمر فى عـــام المجاعة عن أكل اللحوم ، واقتصر على ادام الملح والزيت ، خشية ان يتميز على سائر الرعية » .

وبينما عمر يمشى فى سكة من سكك المدينة لمح طفلة تطيش هزالا ، تقوم مرة ، وتقع اخرى ، وسال : من يعرف هذه منكم ؟ قال ابنه عبد الله : هذه يا امير المؤمنين احدى بناتك .. هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر .. قال : ويحك .. وما مصيرها الى ما ارى ؟ قال : منعك ما عندك .. قال : ومنعى ما عنـــدى منعك ان تطلب لبناتك ما يطلب القـــوم لبناتهم .. انك ــ والله ــ مالك عندى غـــير ســـهمك فى المسلمين .. وسعك او اعجزك .. هـــذا كتـــاب الله بينى وبينك .. !

وتعالوا بنا الى ما يحدث اليوم فى ظل الحكم الجاهلى .. ان للطفل فى الأسرة المالكة او الحاكمة مخصصات منذ ولادته ، وهكذا تعيش الاسرة المحظوظة فى قمة الترف عالة على اموال المسلمين ..

وكان معيقب على بيت مال عمر ، فكسح بيت المـــال

يوما فوجد فيه درهما ، فدفعه الى ابن عمر .. قال : ثم انصرفت الى بيتى ، فاذا رسول عمر قد جاء يدعونى ، فجئت فاذا بالدرهم فى يده : فقال : مالى ومالك يا معيقب ، فقلت : وماذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : اردت ان تخاصمنى أمة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى هذا الدرهم يوم القيامة ؟؟

وبلغ عمر بن عبد العزيز ان احد أبنائه يلبس خاتما ثمنه ألف درهم ــ اى ما كان يوازى عشرين جنيها ــ فكتب اليه « يا بنى ، بلغنى انك تلبس خاتما بألف درهم ، وانا انصحك أن تبيعه ، وتطعم بثمنه ألف جائع ، والتمس لنفسك خاتما من حديد ، واكتب عليه : « رحم الله امرءا عرف قدر نفسه » !

وعندما ولى على كرم الله امر الخلافة . هجر قصر الخلافة فى الكوفة ، وتخلى عن كل مظاهر البذخ والترف ، واوى الى كوخ من الطين ، ووجد فيه طمأنينة النفس، ورضى الله عنه ، وهو القائل اثر توليه الخلافة :

« اقتنع من نفسى بأن يقال : أمير المؤمنين .. ثم لا أشارك المؤمنين فى مكاره الزمان ؟ .. والله لو شئت لكان لى من صفو هذا العسل ، ولباب هذا البر ، ومناعم هذه الثياب .. ولكن هيهات ان يغلبنى الهوى ؛ فأبيت مبطانا ، وحولى بطون غرثى ، واكباد حرى .. !! » .

وقد يقول قائل :

الم تكن احوال الخلافة الاسلامية ــ بعد الخلافة الرشيدة ــ على مستوى من البذخ والترف ؟ ونحن نجيب :

بلى .. ولكن من قال : ان هذه الخـــلافة كانت فى عصر العباسيين ، واواخر الامويين ، او فى عصر الفاطميين خلافة اسلامية اصيلة ، لقد تحولت الى كسروية ؟ والذنب ليس ذنب الاسلام ، فهو قـــد قعد القواعد ، ووضع المناهج ، والمسئولية ليست مسئولية الانظمة التى انحرفت وحدها ، بل ايضا مسئولية الشـــعوب التى استسلمت ، ومسئولية علماء الدين الذين وقفوا مواقف سلبية ، واحقاقا للحق أن بعض علمـــاء الدين لم يستسلم وواجه الباطل ، امثـــال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى وعمرو بن عبيد ، ومن المتاخرين أمثال العز بن عبد السلام ، وابن تيمية ..

عنـــدما حج الخليفة العباسى جعفر المنصـــور ، واجهه احـــد الوعاظ قائلا : كم انفقت فى حجك هذا يا امير المؤمنين ؟ فأجاب : لا ادرى . سل غلمانى .. فقال له : لكن عمر بن الخطاب حين حج سأل غلامه : كم انفقنا فى حجنا هـــذا يا غلام ؟ قال : بضعة عشر دينارا ، فقال له عمر : ويحك لقد اجحفنا ببيت مال المسلمين .. !

وهذا هو الفرق بين الخلافة الاسلامية الرشيدة وبين غـــيرها .. !

***

● **التعلات والسلبيات :**

كانت الانظمة التى تقود عمليـــة التعويق أو التعطيل لشريعة الله ، تلتمس لنفسها عذرا ، يوم أن كان للاستعمار

سلطانه فى ديار المسلمين ، وبالرغم من مبررات التعــويق او التعطيل . قيل : ان فى ديار المسلمين اقليات غير مسلمة .. لكن ما شأن هذه الاقليات غير المسلمة وتطبيق شريعة الله ؟ أليسـوا مواطنين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ؟ ان تطبيق الشريعة لا يمس عقائد الناس ، ولا يكرههم على اعتناق الاسلام ، وانما يعنى ان يكون الاسلام نظام حياة فى كل شئونها ، ثم ان لنا اقليات مسلمة فى سائر دول العالم ، فهل شكل وجودهم اعتراضا على نظــام الحياة فى هــذه الدولة ؟

فى اية دولة مسلمة يترك للاقليات غير المسلمة أن تتعامل مع قوانين الأحوال الشخصية الخاصة بها ، بينما فى فرنسا مثلا ليس للاقليات المسلمة هناك مثل هذا الحق ، وبالرغم من أن فى ايطاليا تعيش الالوف من المسلمين ، الا أن السماح لها باقامة مسجد لم يتم الا منذ اقل من عامين ، بينما فى دول مسلمة ليس فيها مسيحيون يسمح باقامة الكنائس لمجرد أن بها عاملين اجانب من المسيحيين .. والاقليات المسلمة تشن عليها حروب الابادة فى كل مكان ، ولم يحدث ــ ولن يحدث ــ فى دولة مسلمة مجرد تفرقة بين المسلمين وغير المسلمين .. !

* * *

● **ولنترك هذا جانبا :**

ولنعرض لاحدى التعلات الاخرى ، والعجيب فى الامر ، ان هذه التعلة ينشرها ويدافع عنها اقلام عرفت بنشاطها فى الحقل الاسلامى ، ومؤدى هذه التعلة ، ان تطبيق احــكام

الشريعة يحتاج الى وقت لتهيئة الاذهان للقبول ، وسبق أن قلت : ان الشعوب المسلمة محال الا تتقبل تطبيق احكام الشريعة الاسلامية ، وان المعارضة لا تتوافر الا فى الانظمة ومعها اصحاب المطامع والمصالح والاهواء الذين تصطدم اهدافهم بالاسلام نظام حياة .. وها نحن — أولاء — نرى كل حين قوانين وضعية جديدة تسن ، وتفاجأ الشعوب بها ، ومع ذلك فلم نسمع بأن الأذهان قد هيئت لقبولها ، بل ما أكثر ما يضاف الى الدساتير نصوص تمنح الحاكم مزيدا من السلطات المطلقة ، وما على مجالس البرلمانات أو مجالس الشورى الا الموافقة دون ادنى تردد ، وتنبرى وسائل الاعلام للتأييد ، بل للتمجيد والتبرير ..

اما مالايمكن هضمه على الاطلاق ، ان يستعرض وزير الثقافة والاعلام المصرى السابق - الاستاذ عبد المنعم الصاوى عضلاته ، فيدلى بتصريح لجريدة صليبية تصدر فى « لوس انجلوس » بأمريكا اسمها « المصرى » يبدى فى تصريحه معارضته الشديدة لتطبيق الشريعة الاسلامية فى مصر ، ومتحديا لمشاعر زهاء اربعين مليون مسلم ، واثقا من ان رضا السياسة العليا فى بلاد العم سام ، والسياسة العليا فى مصر أجدر بالاعتبار لديه من الاسلام ومشاعر المسلمين فى شتى بقاع الارض لا فى مصر وحدها ..

جاء فى تصريح الوزير المصرى ، المسلم بحكم شهادة ميلاده :

« أنا لا انكر ان هناك نوعا من الاندفاع حتى داخل مجلس الشعب ، به عدد لا يقل عن خمسين عضوا من اعضاء

المجلس ، مندفعين اندفاعا شديدا جـــدا ، مطالبين بتطبيق الشريعة الاسلامية والحدود » .

السيد الوزير « المبجل » يسمى المطالبة برد اعتبـــار الشريعة الاسلامية فى مصر الاسلامية لحما ودما برغم انفه ، اندفاعا ، أما مالا يعتبر اندفاعا فى نظر الوزير ، فهو التشبث بالتشريعات الوضعية التى ليست الا امتدادا لحكم الجاهلية ، الذى هيأ لامثاله ان يكونوا وزراء فى مستوى المسئولية ..

ثم قال :

« وانا اكثر الوزراء معارضة لتطبيق الشريعة او المبادىء الاسلامية » . وكنا نود ان يهمس الوزير الى نفسه : من هو حتى يعارض ؟ ونحن نعلم أن معارضته ليست نابعة من ذاته ، وانما من معارضة السياسة العليا للدولة ، ولو قدر الله الهداية للدولة فأقرت الاتجـــاه الى تطبيق شريعـــة الله عز وجل ، لكان السيد الوزير اكثر الوزراء أيضا تحمسا للاتجـــاه ، باعتباره وزيرا للاعلام ، وهذا لا يمنع ان تكون معارضة الوزير ذاتية ، لان مثله فى ظل الحكم الاســـلامى لا يمكن ان يكون له الا وجود الصفر على الشمال .

ثم حاول الوزير « الأجل » فى تصريحه ان يرتدى ثوب الفقيه بلا فقه ، وفى مجال لا فقهاء اصلا فيه ، فعرض لمشروع قانون الردة الذى ظهر على السطح ثم اختفى بقـــدرة قادر بعد ان تم واده فى المهد وفى صمت مطبق . قال :

« ابو بكر .. لما دخل حروب الردة دخلها لحماية الدين

الاســـلامى من الانهيار ، وبعد مامات النبى ... النــــاس نصورت انه خلاص .. بقيت فيه رخصة ان يتركوا الاسلام ، كانما الدين الاسلامى مرتبط بحياة النبى محمد .. فلما مات حصلت هزة ، فدخل ــ يعنى ابا بكر ــ فى الحــروب .. فهل هذا هو الظرف اللى احنا عايشين فيه ؟ ده ظرف آخر .. ده شيء لم يخطر على ذهن اى انسان .. ده كلام فارغ .. جابوا منين قانون الردة ده ؟؟ » .

ونحن نعتذر للقراء لأننا ننقل بعض عبارات الوزير كما جاءت على لسانه باللغة العامية الركيكة ، لان وزير الثقافة فى دولة العلم والايمان ، يجهل ابسط قواعد النحو ، ويجهل الكتابة باللغتين العربية والعامية معا .

هذا ــ ومما تجدر الاشارة اليه ، ان وزير الثقافة عقد اجتماعا فى مقر جريدة « المصرى » الصليبية هناك ، وجاء على السنة اصحابها وبعض محرريها ، كأمثال فهمى عطاالله ، وشكرى بولس ، عبارات تضمنت تحديا وتطاولا ، ونحن نضرب صفحا عن هراء اجتره صليبيون حاقدون ...

ولا تعقيب لدينا على عنجهية وزير الثقافة ، وحسبه انه كشف عن جهله بشريعة الاسلام ، وبخاصة فى مسالة فقهية كمسالة الردة ، ولا نطمع ايضا فى ان يعرف قدر نفسه ماضيا وحاضرا .. ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه ، وصدق الله العظيم :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا .. اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم .. لهم فى الدنيا خزى .. ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . » .

وأخيــــرًا ...

واخـــــــيرا ...

● نحن ـ كمسلمين ـ نعتز بشريعة الله .. شريعة القرآن ، ونعتقد اعتقادا راسخا ، انها اكبر واسمى من أن نضع مقابلها اى شريعة اخرى للمقارنة بينهما ، سواء أكانت هذه الشريعة الاخرى منسوبة الى السماء ، وقد أجرى فيها كثير من التلفيق والحذف والتغيير على أيدى كهنتها كما سجل القرآن الكريم ، أم كانت هذه الشريعة الاخرى منسوبة الى الارض ، اى من صنع البشر ، والبشر مهما بلغوا من رجاحة العقل ، وسلامة التفكير ، لا بد أن يتركوا ـ حين يشرعون أو يقننون ـ مجالا لتسلل الهوى ..

● ونحن ـ كمسلمين لا يخالجنا أدنى ريب ، ولاتساورنا اثارة من شك ـ فى ان مصلحة الشعوب المسلمة ، هى فى أن تحكم شريعة الله لانها قائمة على العدل ، وفى أن مصلحة الانظمة الحاكمة فى ديار المسلمين ، هى أن تحكم شريعة الجاهلية لانها قائمة على الهوى ، والا لماذا تخشى الانظمة الحاكمة شريعة الله ؟ لمـــاذا تضع كل العقبات فى سبيل تطبيقها ؟ لمـــاذا تتعقب الدعاة الى حكم شريعة الله ، تهددهم وتتوعدهم ، وتضيق عليهم الخناق ، وتستعدى عليهم أقلاما مشبوهة ، والسنة منبوذة ، تفعل هذا بعض الانظمة سافرة بلا حياء ، ويفعله البعض الآخر منها ، من وراء حجاب فى

خبث ودهاء ، والهدف واحـــد ، هو ان لا تقوم لشريعة الله قائمة ..

● ونحن ـــ كمسلمين ـــ نعتقد ـــ ونحن على ثقة من صدق اعتقادنا ـــ ان تجاهل الانظمة الحاكمة لشريعة الله فى ديار المسلمين ، سيظل قائما ، وسوف يظل يزداد شراسة وشططا وسعارا ، مادامت الشعوب المسلمة راضية بالمذلة والمسكنة والهوان ، وآثرت القعود على الجهاد ، لم تفكر مجرد التفكير فى أن يكون لها وجود يذكر ، او اعتبار يحسب له حساب ، لقد اطمأنت الى انها مغلوبة على امرها ، وان هذا يعذرها عند الله عز وجل ، وما كان الله سبحانه ليقبل عذرا لمستسلم او مستكين ، او لمن هان عليه دينه فهانت عليه نفسه ، وهان عليه وجوده بأسره :

(.. احسب النـــاس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقـــد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ..) .

● ونحن ـــ كمسلمين ـــ نعتبر علماء الدين فى ســـائر بلاد المســـلمين ـــ مقصرين تقصيرا مثيرا للاسى والحسرة معا .. لانهم اعطوا وجوههم للدنيـــا ، واعطوا ظهـــورهم للاخرة .. لم يقتدوا بسلفهم من العلماء العاملين ، الذين وصفهم الامام على كرم الله وجهه ، بأنهم الذين صحبوا الدنيا بابدان ارواحها متعلقة بالمحل الاعلى .. اولئك خلفاء الله فى ارضه ، والدعاة الى دينه .. » وانما اقتـــدوا بمصالحهم الدنيوية ، وتجاهلوا رسالتهم فى الحياة ، ورسالات العلماء هى انهم ورثة الانبياء .. وامناء الله على خلقه ، ومن كان شأنهم هذا يجب عليهم أن لا يمالئوا سلطانا ، والا يساندوا

باطلا ، ويجب عليهم أن يكون مع الحق متى وحيثما كان .. ويجب عليهم الا يكونوا على هوى السلطان فيما أمر وفيما نهى ، وفيما اشتهى ..

لماذا سكت علماؤنا عن شريعة الله المعطلة ؟

لماذا التزموا الصمت ، وتكلفوا الصمم والعمى ، وقد استبدلت الانظمة الحاكمة حكم الجاهلية بشريعة الله عز وجل ؟؟

الا انهم نسوا الله فانساهم انفسهم ؟

الا انهم باعوا دينهم بدنيا السلطان ؟

أهى الرهبة من غضب السلطان ؟

أهى الرغبة فى الدنيا والزهد فى الآخرة ؟

اذن فاين الثقة فى الله عز وجل :

(ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم ..) .

العالم الدينى الذى يقسم على الولاء للدستور ، الذى هو من وضع البشر ، وبقية من رواسب الجاهلية الاولى ،

ليحل محل شريعة الله عز وجل .. أهو عالم جدير بأن نثق فى علمه .. ؟؟

● **وآخر الكلمات :**

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا .. وهب لنا من لدنك رحمة .. انك أنت الوهاب ..) .

* * *